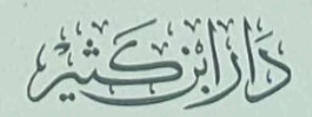
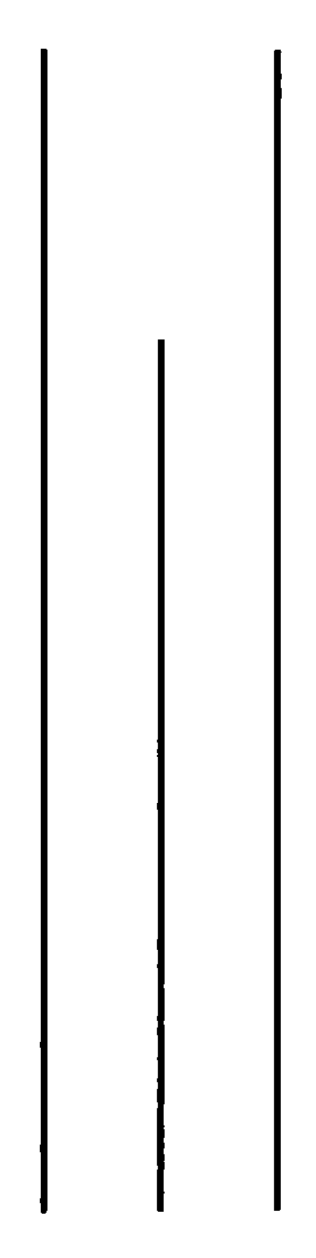


روائع إقبال

للعلّامة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدوي






روائع إقبال

○ الموضوع: ثقافة إسلامية
العنوان: روائع إقبال
تأليف: الشيخ أبي الحسن الندوي

الطبعة الثالثة

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

ISBN 978-614-415-140-2



○ الطباعة والتجليد: ملكي برنت

○ الورق: أبيض / الطباعة: لون واحد / التجليد: غلاف

○ القياس: ١٤×٢٠ / عدد الصفحات: ٢٥٠ / الوزن: ٤٥٠ غ

دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - سوريا - ص.ب : ٣١١

حلبوني. جادة ابن سينا. بناء الجابي - صالة المبيعات تلفاكس: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠

الإدارة تلفاكس: ٢٢٤٣٥٠٢ - ٢٢٥٨٥٤١

بيروت - لبنان - ص.ب : ١١٣/٦٣١٨

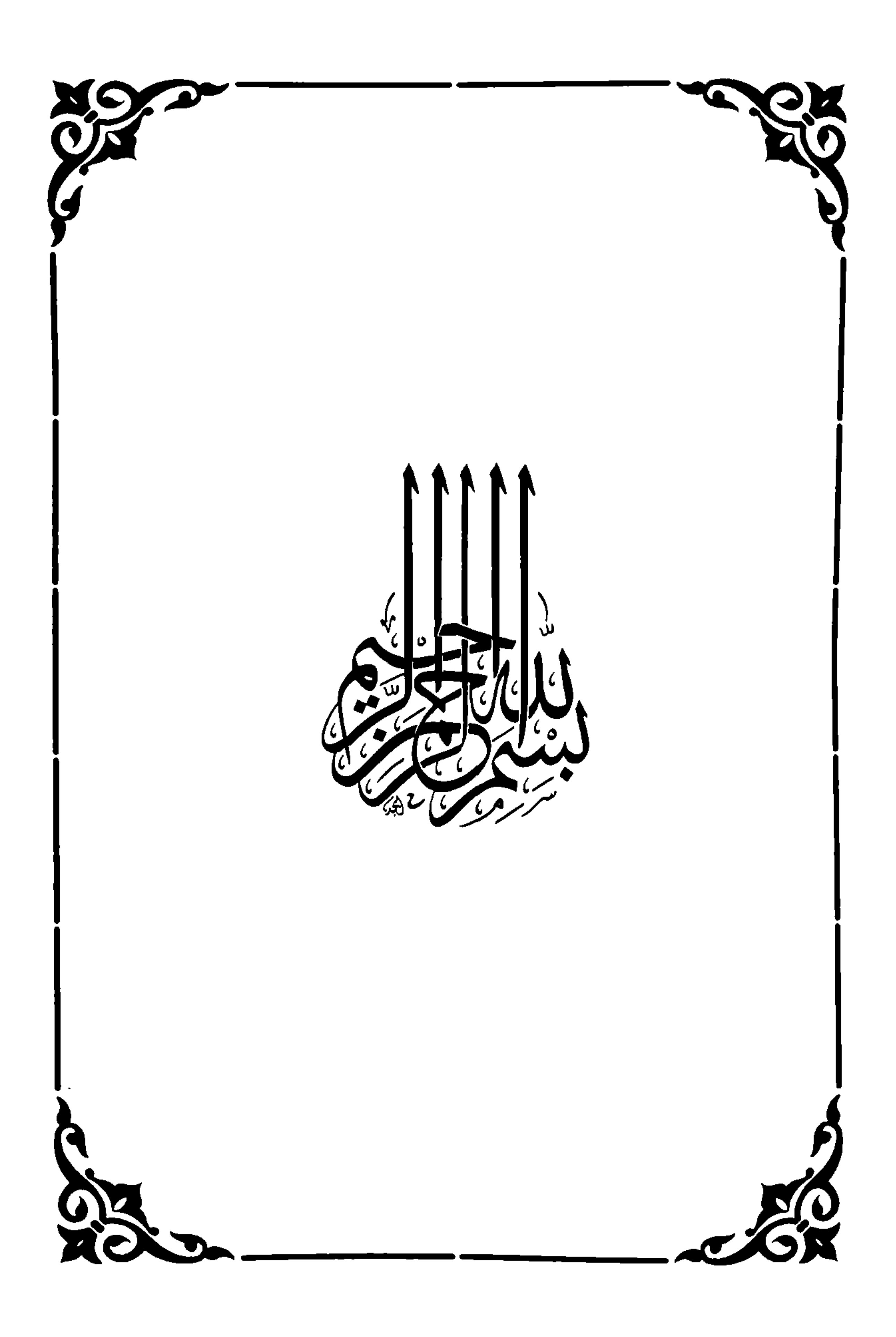
برج أبي حيدر. خلف دبوس الأصلي. بناء الحديقة - تلفاكس : ٨١٧٨٥٧ ٠١ - جوال : ٠٣ ٢٠٤٤٥٩

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

روائع إقبال

للعلّامة الإمام السيّد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ




بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر
للطبعة الخامسة

هذه هي الطبعةُ الخامسة لكتاب «روائع إقبال» لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله ، لقد صدرت له طبعات عديدة في كل من اللغتين الأردية والإنجليزية أيضاً ، ونال الكتاب قبولاً وشيوعاً في أوساط الأدب والفكر ، فإن الكتاب يعرض فكر شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال رحمه الله خيرَ عرض وأصدقه ، كما أنه يقدم نماذج شعره منقولة إلى العربية نثراً بأدق ترجمة وأروعها ، يتبينها المطلع على اللغتين اللغة العربية واللغة التي عبر فيها الشاعر عن تأملاته وأفكاره ، فإنه سيرى فيها الدقة ، والقدرة على النقل الأمين، والروعة البيانية بدون أن تفقد مستواها وحجمها عند اكتسائها للباس لغوي آخر ، وذلك لأن المؤلف ـ كما ذكر لبعض تلاميذه ـ كان يقرأ الشعر أولاً بإمعان وينفعل معه انفعالاً فكرياً ودينياً ، ثم كان يصوغه بقالب مشابه لأصله دقة وبياناً ، فأصبح الكتاب بذلك نموذجاً رائعاً جداً للتعريب من لغة أردو وغيرها ، لم يعد به الكتابُ استعراضاً لفكر الشاعر وحده ، بل صار

نقلاً لبيانه الشعري أيضاً ، ونصوصاً أدبية بذاتها في اللغة العربية .

ولا أظن أن كتاباً آخر في استعراض شخصية الدكتور محمد إقبال الفكرية والشعرية المزدوجة ـ مع كثرة ما صدر في هذا المجال من الكتب ـ يبلغ إلى درجة هذا الكتاب في تصويره وتعبيره لشخصية الدكتور محمد إقبال الفكرية والشعرية .

ويسعد «المجمع الإسلامي العلمي» بندوة العلماء في لكهنؤ أن يقدم إلى القراء طبعة الكتاب الجديدة بعد ما نفدت الطبعات السابقة ، ولقد بذل المجمع سعيه لإخراج الكتاب في مظهر جذاب وطبع أنيق ، مع زيادة فصلين كان أضافهما المؤلف حفظه الله بعد الطبعة الأولى ، وهما في آخر الكتاب . أدعو الله تعالى أن يجزي المؤلف على عمله أحسن الجزاء ، ويتقبل منا ، ويغفر زلاتنا ، وهو تواب كريم .

١٦/ ٧/ ١٤١١هـ — **محمد الرابع الحسني الندوي**

٢/ ٢/ ١٩٩١م — **الأمين العام للمجمع**

بين يدي الكتاب

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد:

فقد ظهرت الطبعة الأولى لكتابنا «روائع إقبال» سنة ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م، أصدرتها دار الفكر بدمشق، وقد تلقي هذا الكتاب بقبول عظيم، وكان من كتب الشباب المسلمين المثقفين الحبيبة الأثيرة المفضلة، فكثرت قراءتهم له، وعنايتهم به، حتى وعته ذاكرتهم، وذلت به ألسنتهم وأقلامهم، وحفظ كثير منهم قطعاً وصفحات من الكتاب، وكثر اقتباسهم منه، واستشهادهم به في أحاديثهم ومقالاتهم.

وزدت فيه فصولاً مهمة، زادته قوة وقيمة، ونشرته دار الفتح في بيروت سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م، وحظي بالقبول وانتشر في المدة القريبة في العواصم العربية والأوساط العلمية والأدبية، وكان من المتوقع المضمون أن تصدر عدة طبعات في مدة قليلة، ولكن منع عن ذلك أسباب ترجع إلى بُعْد المؤلف عن مركز حركة الطبع والنشر في الشرق العربي، واشتغاله بأعمال تأليفية أخرى،

وعدم نشاط كثيرٍ من المكتبات العربية في نشرالفكرة الإسلامية الصحيحة ، وخضوعها للنزعة التجارية ، وتأخرت الطبعة الثالثة حتى وفَّق الله المؤلف لتصحيحه وتنقيحه ، ووفق دار القلم في الكويت لإصدار هذه الطبعة المزيدة المنقحة .

إنَّ موضوع شعر إقبال وفلسفته من الموضوعات التي نضجت واحترقت ، ولا أعرف شخصية ، ولا مدرسة فكرية في العصر الحديث تناولها الكتاب والمؤلفون والباحثون والمحققون بالتأليف والتحقيق ، مثل ما تناولوا هذا الشاعر العظيم ، فبحثوا عن كل جانب من جوانب حياته ، وشعره وفكره وفلسفته ، حتى تكونت في هذا الموضوع مكتبة زخرت بالكتب والرسائل والبحوث ، وبمؤلفات في كبرى لغات العالم وأرقاها ، وقد جاء في مقال قرىء في مهرجان إقبال المئوي المنعقد في مدينة «لاهور» تحت إشراف حكومة باكستان في ديسمبر سنة ١٩٧٧م أن عدد ما صدر عن «إقبال» من الكتب والرسائل في لغات العالم المختلفة ، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠)[١] ، ما بين كتاب ورسالة ، هذا عدا ما نُشِر عنه من البحوث والمقالات ، وما ألقي من أحاديث ومحاضرات في مجلات وحفلات مختلفة ، وبذلك فاق «إقبال» على «شكسبير»

---

(١) نقلاً عن مقال للأستاذ صباح الدين عبد الرحمن مدير دار المصنفين: أعظم كره الهند ، على إثر عودته من المؤتمر في مجلة «معارف» الشهرية ، شهر فبراير ١٩٧٨ م.

الإنجليزي و«دانتي» الإيطالي و«طاغور» الهندي ، فلم يكتب عن أحد معشار ما كُتب عنه ، وفي كل سنة فيض من البحوث والمقالات في الجامعات العصرية ، والمجامع العلمية ، والنوادي الأدبية ، ولا يزال في مدّ وزيادة.

لذلك كان عندي شكٌّ كبير حين شرح الله صدري لنشر «روائع إقبال» أن يسترعي هذا الكتاب اهتمامَ المشغوفين بهذا الموضوع فضلاً عن أصحاب الاختصاص والباحثين فيه، فإنني لم أكن في عهد من العهود كاتباً مرموقاً، أو باحثاً صاحب اختصاص في هذا الموضوع يُشار إليه بالبنان ، وكانت كتابتي في هذا الموضوع شبه مغامرة علمية ، أو جرأة أدبية ، وكانت أكثر مؤلفاتي في موضوعات تاريخية وعلمية ودينية ، وكانت محاولة نقل هذا الشعر إلى اللغة العربية تزيد المهمة دقة وخطورة؛ لذلك حين طلب بعضُ الزملاء الفضلاء أن ينقلوا كتاب «روائع إقبال» إلى اللغة الأردية ـ أغنى لغات العالم في حركة التأليف عن إقبال ـ عارضت هذه الفكرة ، وشعرت بأنه إذا نقل إلى أردو ظهرت تفاهة الكتاب، وافتضح مؤلفه، وأقل ما كنت أتوقعه أن يقول الناس في شبه القارة الهندية «بضاعتنا رُدَّت إلينا» وأي حاجة دعت إلى ترجمة هذا الكتاب في الأردية، وقد أتخمت بالمؤلفات بين صغير وكبير في هذا الموضوع؟!.

ولكني فوجئت بما رأيته من تقدير كبير ، وثناء عاطر من كبار الأساتذة في شبه القارة الهندية ، الذي يعتبرون حجة في فهم شعر

إقبال وتفسيره ، والكشف عن دقائقه ، كالأستاذ الكبير صاحب مدرسة أدبية خاصة في «أردو» البروفسور رشيد أحمد الصديقي ، رئيس قسم «أردو» في جامعة علي كره الإسلامية ، فقد قدم الطبعة الثانية لكتاب «نقوش إقبال» (ترجمة روائع إقبال) واعترف في مقدمته بأن هذا الكتاب له مكانة خاصة فيما كتب عن إقبال ، وأن مؤلّفه قد أنصف الموضوع ، وأخلص له ، وطلب منه أن يستمر في الكتابة عن إقبال ، ويتحف العالم العربي والإسلامي بالمزيد الجديد .

وقال الأستاذ الناقد ماهر القادري شاعر باكستان الكبير ، ومنشىء مجلة «فاران» الصادرة من كراتشي ، في كلمته عن هذا الكتاب : «إن فكر إقبال وروحه قد امتزجا بما جاء في هذا الكتاب ، وسريا فيه ، كالرائحة في الرياحين والنور في الكواكب النيرة» .

وكانت أكبر شهادة بأن المؤلف كان التوفيق حليفه في فهم شعر إقبال والإنصاف له في شهادة الدكتور جاويد إقبال (نجل المرحوم العلامة محمد إقبال) الفاضل الذي أسمى محمد إقبال أحد دواوينه الكبار ، وهو «جاويد نامه» باسمه ، فقد قال بعد اطلاعه على «نقوش إقبال» في كلمته التي كتبها عن هذا الكتاب :

«ولقد عرض مؤلف هذا الكتاب جوانب مختلفة من فكر محمد إقبال في أسلوب أكبر ظني أنه يوافق محمد إقبال نفسه ، أو كان يؤثره لشرح أفكاره» .

إن هذه الاعترافات التي لم يكن المؤلف يتوقعها من أصحاب الاختصاص والزعامة في فهم شعر إقبال وعرضه ، شجَّعت المؤلف على مواصلة هذه الرحلة وعرض مجهوده العلمي والأدبي على العالمين العربي والإسلامي ، وقد ظهرت أربع طبعات لـ «نقوش إقبال» في مدة قصيرة ، والطبعة الخامسة على وشك الصدور ، وظهرت الترجمة الإنكليزية باسم «Glory of Iqbal» بقلم كاتب الإنجليزية الكبير الدكتور محمد آصف القدوائي.

وها هي الطبعة الثالثة لـ «روائع إقبال» في أيدي القراء ، نرجو أن تأخذ مكانها في المكتبة العربية ، وفي نفوس الشباب والمثقفين والعلماء والدارسين.

١٢ ربيع الأول ١٣٩٨هـ
٢٠ فبراير ١٩٧٨م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

صلتي بمحمد إقبال وشعره

نشأتُ في عصر وفي بيئة بلغ فيها شعرُ محمد إقبال قمة مجده وشهرته ، وفي جيل فُتن به أكثر مما فتن بشعر شاعر وأدب كاتب ، فلا عجب إذا أعجبتُ به صغيراً ، وعنيت به كبيراً.

إنَّ أسباب الإعجاب بشعر محمد إقبال كثيرة ، وللمعجبين به أن يتحدثوا عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس ، فالإنسان إنما يحب نفسه ، ويطوف حولها ، ويعيش فيها ، ويحب كلَّ ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ، ولا أبرىء نفسي ، فربما أحببتُ شعر محمد إقبال لأني رأيته يوافق هواي ، ويعبر عن ضميري وخواطري ، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري ، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري.

إنَّ أعظم ماحملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح ، والحب ، والإيمان ، وقد تجلى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته أعظم مما تجلى في شعر معاصر ، ورأيت نفسي قد طُبعت على الطموح والحب والإيمان ، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح ، وسموّ النفس ، وبعد النظر ،

والحرص على سيادة الإسلام ، وتسخير هذا الكون لصالحه ، والسيطرة على النفس والآفاق ، ويغذيان الحب والعاطفة ، ويبعثان الإيمان بالله ، والإيمان بمحمد ﷺ ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته ، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها .

إنني أحببته وشغلت به كشاعر «الطموح والحب والإيمان ، وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة ، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية المادية ، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها ، وكداعية إلى المجد الإسـلامي ، وسيادة المسلم ، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين ، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية .

قرأت شعره في الصبا وفي عنفوان شبابي ، وحاولت أن أنقل بعض قطعه الأدبية إلى العربية ، ولم أكن قد قرأتُ له في ذلك العهد إلا مجموعة شعره «بانك درا» ، وقد صدرت له دواوين فارسية لم أكن قد قرأتها وتذوقتها في ذلك الحين؛ لضعف ثقافتي الفارسية ، وكانت زيارتي الأولى له في سنة ١٩٢٩م .

كنت في السادسة عشرة من عمري ، وقد قدر لي أن أزور لاهور ، بلد العلم والثقافة في الهند ـ غير المنقسمة ـ ومقر الشاعر العظيم ، وفي يوم صائف شديد الحر من أيام أيار الأخيرة ، أخذني الدكتور عبد الله الجغتائي ـ أستاذ الفن الإسلامي في جامعة بنجاب اليوم ـ إلى محمد إقبال ، وقدَّمني إليه ، وذكر شغفي بشعره ، وذكر

والدي مولانا السيد عبد الحي الحسني [١] ، الذي كان يعرفه محمد إقبال ، ويعرفه الأدباء والمثقفون بكتابه العظيم «كل رعنا» ، تاريخ الشعر والشعراء في الهند؛ الذي كان قد صدر حديثاً ، ولفت الأوساط الأدبية ، وأثار الاهتمام فيها ، وقدَّمتُ إليه ترجمتي لقصيدته البديعة «القمر» فتصفحها محمد إقبال ، ووجَّه إليَّ أسئلة عن بعض شعراء العربية يختبر بها دراستي وثقافتي ، وانتهى المجلس ، ورجعتُ معجباً بتواضع الشاعر العظيم ، وبساطة مظهره ، وعدم تكلفه في المعيشة والحديث.

وبقيت بعد ذلك أعواماً طوالاً من ١٩٢٩م إلى ١٩٣٧م أزور لاهور كثيراً ، وأقضي فيها أسابيع وشهوراً ، ولا أحرص على زيارة الشاعر العظيم ثقة ببقائه ووجوده ـ وكم خدع هذا أناساً ـ وقد أعان على ذلك زهدي في زيارة العظماء ، وعكوفي على الدراسات والأشغال العلمية في لاهور.

وقد صدر في هذه المدة ديوانان جديدان له في أردو ـ بعد فترة

---

(١) مؤلف كتاب «نزهة الخواطر» في تراجم أعيان الهند ـ غير المنقسمة ـ في ثماني مجلدات كبار ، ظهرت بكاملها من دائرة المعارف بحيدر آباد ، الهند، ونشر المجمع العلمي العربي بدمشق كتاباً له «الثقافة الإسلامية في الهند» ونشرت دائرة المعارف في حيدر آباد كتاباً ثالثاً له اسمه: «الهند في العهد الإسلامي» توفي في سنة ١٣٤١ هـ.

طويلة انقطع فيها عن الشعر في أردو ، وآثر الفارسية لرسالته وشعره ـ كان لهما دويّ عظيم في الأوساط الأدبية والإسلامية ، وشاعريته فيهما أقوى ، وفكرته أنضج وأحصف ، ورسالته أوضح ، وقد قدر لي أن أقرأ «ضرب كليم» وأتذوقه أكثر من «بال جبريل» وإن كان من المقدر والمقرر أن يكون إعجابي بـ «بال جبريل» وعنايتي به بعد في الترجمة والنقل ، أكثر وأعظم .

كنت مُدرِّساً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، ومقيماً مع أخي الأستاذ فقيد اللغة العربية في الهند مسعود الندوي ، منشىء مجلة «الضياء» العربية ، وكنا نتناشد شعر إقبال ، وكان الأستاذ مسعود من شيعة إقبال ، ومن كبار المتحمسين له ، وكان يغيظنا أن طاغور أشهر في الأقطار العربية من إقبال ، وإعجاب إخوتنا العرب والأدباء في مصر وسورية لشعره أكثر ، وكنا نعد ذلك تقصيراً منا في تعريف شعر إقبال ، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور وإطراء له في مجلة عربية ـ وما أكثر ما كنا نرى ذلك في المجلات العربية ـ قوي عزمنا على ترجمة شعر إقبال ، ورأيناه أمانة في أعناقنا .

وقد قدر الله أن أجتمعَ بالشاعر العظيم قبل وفاته بشهور ، وأن تكون لي معه جلسة طويلة تاريخية ، كان ذلك في اليوم السادس عشر من رمضان عام ١٣٥٦ (٢٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٩٣٧) زرتُه في منزله في الصباح ، وكان معي عمي الأستاذ الكبير

طلحة الحسني [١] ، وابن عمي السيد إبراهيم بن إسماعيل الحسني ، وكان معتكفاً في بيته في مرض طال به ، وأضناه ، وكان مرضه الأخير الذي توفي فيه ، صادفنا من نفسه نشاطاً وطيباً ، أو نشط بقدومنا ـ لستُ أدري ـ وفاضت قريحته ، فطالت الجلسة ، وطابت حتى استغرقت نحو ثلاث ساعات ، والخادم العجوز يقاطعه حيناً بعد حين إشفاقاً على صحته من طول الجلوس ، وكثرة الحديث ، فيعتذر ، ويوقفه ، واسترسل في الكلام ، وأفاض ، وتحدث عن كل موضوع ، تحدَّث عن الشعر العربي القديم ، وتحدث عن إعجابه بصدقه وواقعيته ، وما يشتمل عليه من معاني البطولة والفروسية ، وتمثل ببعض أبيات الحماسة ، وذكر أن الإسلام أثار في أتباعه روح الكفاح ، وحب الواقع ، وأن علوم الطبيعة تلتقي مع الإسلام على الجد والعمل ، والبعد عن البحوث الفلسفية التي لا جدوى فيها ، وقد ظلت هذه الروح متغلغلة في المجتمع الإسلامي قرنين ، فقد بقي متمسكاً بالعقيدة والعمل والسيرة والخلق ، حتى طغت عليه الفلسفة الإغريقية ، وتحدث عن الفلسفة الإلهية ، وكيف شغلت الشرق ، واستهلكت قواه ، وذكر أن أوروبا إنما نهضت وملكت العالم لما ثارت على هذه الفلسفة ما بعد الطبيعة ، وبدأت تشتغل بعلوم الطبيعة المجدية

(١) أستاذ الكلية الشرقية لجامعة بنجاب سابقاً ، ومن كبار العلماء المثقفين ، توفي عام ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠ م.

المنتجة ، ولكن قد حدث وثار من المسائل في هذا العصر ما يخاف معه أن ترجع أوروبا القهقرى ، وذكر أن العقل العربي كان أقوى على إساغة الإسلام إساغة صحيحة ، وأجدر بحمل أمانته ، وقد أصيب الإسلام في إيران بما أصيبت به المسيحية في أوربا ، فقد أثرت العقلية الآرية في كلتا الديانتين.

وتحدَّث عن التصوف ، وانتقد إغراق بعض رجاله في التخيل والتطرف ، وتطرق الحديث إلى تواجد بعض المتصوفين وطربهم للسماع ، فقال: إن الصحابة كان يتملكهم الطرب والاهتزاز والأريحية على صهوات الجياد في ساحة الجهاد.

وتحدث عن التجديد الإسلامي في الهند ، فأثنى على الإمام أحمد السرهندي ، والإمام ولي الله الدهلوي ، والسلطان محيي الدين أورنك زيب ، وقال: إنني أقول دائماً: لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند وحضارتها وفلسفتها الإسلام.

وتحدث عن «باكستان»[1] وقال: إن أمة لا تملك أرضاً تستند إليها لا دين لها ولا حضارة ، فإنما الدين والحضارة بالحكومة والقوة ، وإن باكستان هي الحل الوحيد للمشاكل التي يواجهها المسلمون في هذه القارة الهندية ، وهي الحل الوحيد للمشكلة الاقتصادية ، وأشار إلى نظام الزكاة وبيت المال في الإسلام.

---

(١) لا يغربن عن البال أن باكستان إنما كانت فكرة وحلماً يومئذ، وإنما قامت سنة ١٩٤٧ م بعد وفاة صاحب فكرتها بنحو عشر سنين.

وبمناسبة مستقبل المسلمين في الهند ، قال: أشرتُ على بعض أمراء المسلمين أصحاب الولايات بالعناية بنشر الإسلام في غير المسلمين، ونشر الثقافة والآداب الإسلامية في المسلمين، وإحياء اللغة العربية وأدبها في هذه البلاد ، والانتفاع بثروتهم بتأسيس بنك عالمي، وإنشاء صحيفة إنجليزية عالمية تدافع عن قضايا المسلمين، حتى يحسب لهم حساب ، ويرهب جانبهم ، وتكون لهم مكانة عالمية تُخشى وترجى ، وإن في ذلك صيانة لدولتهم ، وضماناً لكيانهم، ولكن الأمراء المسلمين لم يعرفوا أهمية المسألة، ودقَّة موقفهم ، والأخطار التي تحدق بهم ، وكان يشكو من قصر نظرهم ، وضعف تفكيرهم ، واشتغالهم بنفسهم (١).

ورأينا الدكتور راغباً في الحديث ، راغباً في بقائنا معه لوقت أوسع ، ورأينا من المصلحة أن نستأذنه في الانصراف حتى يستريح ، وسلمنا عليه وخرجنا من عنده ، وسافرت من لاهور ذلك اليوم أو من غد.

وأذكر أني استأذنته في ترجمة شعره إلى العربية في ذلك المجلس فتكرم بذلك ، وأنشدته بعض قصائده من «ضرب كليم» ، وذكر محمد إقبال الدكتور عبد الوهاب عزام وأنه ينوي ترجمة شعره.

---

(١) ألغيت هذه الإمارات بعد التقسيم بجرة قلم ، وذهب الأمراء وأصحاب السمو الذين لم ينتفع الإسلام والمسلمون بثروتهم وكنوزهم ، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾.

وبعد ستة أشهر فوجئنا بنبأ وفاته في ٢١ أبريل من عام ١٩٣٨م ، فصح العزم وانعقدت النية على ترجمة حياته وترجمة شعره ، وكتبت في ذلك إلى الأخ مسعود ، وكان يومئذ في «بتنة» عاصمة ولاية بهار ، وتبادلنا التعازي وأردنا أن نتعاون على هذه المهمة ، فأبدى استعداده وعزمه على ترجمة حياته ، وتقديم فكرته ، وحثني على ترجمة شعره ، وذكر أن قريحته لا تطاوعه في الترجمة ، وشرعنا في العمل ، فكتب الأستاذ مقالة مؤثرة رقيقة في «الفتح» الغراء التي كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب في القاهرة ، وكتبت مقالة في ترجمة حياته أذيعت بعد سنين من محطة الإذاعة في الحجاز ، وتوقفت عن العمل لأشغال تعليمية وتأليفية مرهقة ، وكانت فترة طويلة دامت بضع عشرة سنة .

وفي عام ١٩٥٠م سافرت إلى الحجاز ومصر وسورية ونشطت في هذه الرحلة التي استغرقت أكثر من عام ، لكتابة عدة مقالات عن إقبال وفكرته وشعره ، وألقيتها محاضرات في دار العلوم وفي جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) ومقالة كتبتها في دمشق عام ١٩٥٦م في زيارتي الثانية لسورية ، هي مقالة «محمد إقبال في مدينة الرسول» أذيعت من محطة الإذاعة السورية .

وفتر العزم لترجمة شعره ، خصوصاً وقد علمت أن الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عاكف على ترجمة شعره بالشعر ، وهو من أجدر الناس بهذا العمل ، وأقدرهم عليه لجمعه بين

الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامه الفكري مع إقبال وعقيدته ودعوته، وقد ظهرت له عدة دواوين[١]، وقد ذكر لي بعض الأصدقاء أنها لا تؤثر في نفس القارىء ولا تثيرها إثارة الشعر الرقيق، ولا تعطي صورة كاملة واضحة لفكرة إقبال ورسالته ، ولا تبرز شهرته وما قيل عنه ، وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت أن ذلك لا يرجع إلى ضعف في الترجمة ، ونقص في العلم والفهم ، وهذه الدواوين برهان ساطع على مقدرة الأستاذ عزام الغريبة على النظم العربي ، واقتداره على القوافي الصعبة ، ولكنه لم يكن محسناً إلى نفسه ومواهبه يوم قرر أن يترجم الشعر بالشعر ، وذلك الذي أفقد شعر إقبال قوته وانسجامه ، وأفقد الترجمة بهاءها ورواءها وتأثيرها ، وأضفى على هذا العمل الأدبي العظيم شيئاً من الغموض ، قد يحول بين القارىء وبين التذوق والتمتع بالشعر الجميل ، والمعاني الرقيقة ، وكان الأمثل للأستاذ عزام ـ وهو من أدباء العربية ومن كبار المنشئين فيها ، ومن البارعين في اللغة الفارسية من أبناء العرب ـ أن يتشرب فكرة إقبال ثم يصبها في القالب العربي كما فعل ذلك في بعض مقالاته التي ظهرت في «الرسالة» و«الثقافة» وكانت بارعة مؤثرة ، ولكل لغة جو خاص ، ونفسية خاصة ، ومنهج تفكير ، وأسلوب تعبير ، وتشبيهات ، ومجازات

---

(١) وهي «رسالة المشرق» و «ضرب الكليم» وقد ترجم «أسرار خودي» و«رموز بيخودي» وشيئاً من «جاويد نامه».

تتعلق ببيئتها ومجتمعها وتاريخها ومزاجها ومواسمها وفصولها، إذا ترجمت حرفياً فقدت جمالها ومعناها، ولم تؤد رسالتها.

وعلى كل فإن عمل العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام مأثرة إسلامية أدبية جليلة، تستحق كل تقدير وإعجاب وشكر واعتراف، وهي تدل على علو كعبه في اللغة العربية، وعلو همته وجودة قريحته، وإخلاصه ومثابرته، وحبه للإسلام، والفكرة الإسلامية، وقد كان من سعادة الدكتور محمد إقبال أن يرزق مترجماً وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب في علمه وفضله ونبالته ونزاهته، ولا شك أن روح إقبال مسرورة شاكرة لعمله، جزاه الله أفضل جزاء، وكافأه على هذه المبرة خير مكافأة.

ولعل الأمد كان يطول على هذه الفترة، وفتور الهمة في الترجمة، وقد أشغل عنها لشواغل وعوائق كثيرة، ولكن حدث ما جدد النشاط وحرك العزم، ذلك أني قرأت في مجلة «المسلمون» التي كانت تصدر من دمشق كلمة رقيقة مخلصة لأديب العربية الكبير وكاتبها القدير، الأخ الأستاذ علي الطنطاوي، يحثني فيها على ترجمة بعض قصائد إقبال ليعرف بها مكانة الرجل، وقوة شاعريته وسمو رسالته، ويقول في كتاب مفتوح وجهه إلي: «هل لك أن تختار من شعر إقبال ما يجعلنا نتذوق طعم أدبه ونلم بطريقته، وتتجلى أسباب عظمته، فإن كل ما قرأنا من كلامه مترجماً إلى العربية لم يعرفنا به، ولم يدلنا عليه»... «فهل تضيف

يا أخي! يا أبا الحسن! إلى مآثرك هذه المأثرة فتفتح للعرب كوة على هذه الروضة المحجبة أو تحمل إليهم زهرات منه فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان وإلى الأدب والإسلام»[١].

وقد صادف هذه الاقتراح مني هوى ونشاطاً، وأثار القريحة التي خمدت وفترت من زمان ، فترجمت قصيدته البديعة «في مسجد قرطبة» في جلسة واحدة ، وشعرت باستعداد في نفسي ورغبة لذيذة في الترجمة ، لا أستطيع لها دفعاً ، وجاءت المقالات تترى ، ونشرت في بعض المجلات العربية الإسلامية ، واقتصرت في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها المرحوم العلامة عبد الوهاب عزام بالتعريب ، وكان لديوانه «بال جبريل» أكبر نصيب من هذه التراجم ، وقد رتبتها كما كتبت ونشرت.

أما بعد ، فإني لا أعتقد في إقبال عصمة ولا قدساً ولا إمامة ولا اجتهاداً في الدين ، ولا أبالغ في إجلاله والاستشهاد بأقواله ، كما يبالغ كثير من الكتاب المعاصرين ، والمؤلفين المتطرفين ، إنني أعتقد أن الحكيم السنائي ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومي ، كانوا أرفع منه مكانة بكثير في التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن ، والدعوة والعمل ، وقد كانت له في محاضراته التي ألقاها في «مدراس»[٢] ، أفكار فلسفية وتفسيرات

---

(١) «المسلمون» العدد الثالث المجلد السادس.

(٢) مدينة كبيرة في الهند الجنوبية ، وأسمي مجموع هذه المحاضرات =

للعقيدة الإسلامية لا نوافقه عليها ، ولا أعتقد كما يعتقد كثير من الشباب المتحمسين أنه لم يفقه الإسلام عالم مثله ، ولم يحط بعلومه وحقائقه غيره. إنني لم أزل ـ والحق أحق أن يقال ـ في كل دور من أدوار حياتي وثقافتي معتقداً أنه لا يزيد على أن يكون تلميذاً من تلاميذ الثقافة الإسلامية النجباء الأذكياء ، درسها دراسة مخلصة ، وكان لا يزال في حاجة إلى التعمق والرسوخ فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار (١)، وكانت في شخصيته الكبيرة النادرة جوانب ضعف لا تتفق مع عظمته العلمية ، وعظمة رسالته وشعره ، لم يجد وقتاً كافياً وجواً ملائماً لإكمالها وتسديدها.

إن جل ما أعتقده أن إقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر، أنطقه الله الذي أنطق كل شيء، أنطقه كما أنطق الشعراء والحكماء قبل عصره، وفي غير عصره، إنني أعتقد أنه كان صاحب فكرة واضحة وعقيدة راسخة عن خلود الرسالة المحمدية وعمومها، وعن خلود هذه الأمة وصلاحيتها للبقاء والازدهار،

= Reconstruction of Religious Thought in Islam (تجديد الفكر الديني في الإسلام).

(١) ولم يزل يستفيد فعلاً من العلامة الكبير أنورشاه الكشميري ، والأستاذ الكبير العلامة السيد سليمان الندوي. ورسائله إليه وإلى صديقنا الجليل الأستاذ مسعود الندوي تدل على سماحة نفسه وتواضعه وروحه العلمية.

وعن كرامة المسلم وأنه خلق ليقود ويسود ، وعن تهافت المبادىء والفلسفات والدعوات التي ظهرت في هذا العصر ، كالقومية والوطنية والشيوعية والرأسمالية ، ووجدت فيه من وضوح الفكرة وشدة الاقتناع بها ، والتحمس لها والشجاعة في نشرها، وفي نقد هذه الفلسفات ، ما لم أجده مع الأسف في كثير من رجال الدين ، لعدم اكتناههم بحقيقتها واطلاعهم على نواياها وأهدافها وأسسها وتاريخها .

وأخيراً لا آخراً وجدته شاعر الطموح والحب والإيمان ، وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري، وثارت عواطفي، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي وبحركة للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري .

يحملني على نشر هذا الكتاب في العربية ما أراه من خضوع الشرق الإسلامي العربي للفلسفات الغربية والحضارة المادية خضوعاً زائداً ، قد بدأ هذا العالم العربي الإسلامي يتأرجح بين الجاهلية القديمة والجاهلية الجديدة فإما قومية متطرفة وإما شيوعية ملحدة ، وقد سيطرت على الأدب والشعر النزعة التجارية أو النزعة السياسية ، أو فكرة المتعة والتسلية ، والأديب الذي يعرف رسالته ويخلص لها وينقطع إليها ، ويسخر أدبه ومواهبه لمحاربة الجاهلية ومقاومة الثورة على الرسالات السماوية ، والقيم الخلقية التي انتشرت في العالم الإسلامي ، وصدر تيار الردة الفكرية ، التي اكتسحت الطبقة المثقفة ، يكاد يكون مفقوداً.

في هذا الجو المكهرب بالفكر الغربي، وفي هذا العالم المتجاهل أو المتناسي لقيمته وقوته ، ورسالته ومكانه في قيادة الأمم ، تزداد قيمة شاعر يولد في بلاد بعيدة عن مهد الإسلام ، في سلالة برهمية قريبة العهد بالهداية الإسلامية ، في بيئة كان يحكم فيها الإنجليز وتسود فيها الثقافة الغربية ، يدرس فيها العلوم العصرية ، والآداب الغربية إلى أقصى حدودها ، وفي أعظم مراكزها ، ثم يشتد إيمانه بالرسالة المحمدية، وحبه وغرامه بشخصية محمد ﷺ، وثقته بهذه الأمة ومواهبها ومستقبلها ، وتشتد حماسته للإسلام ، ويشتد إنكاره لأسس الفلسفة الغربية والحضارة الأوربية ، ويستخدم عبقريته الشعرية ومواهبه الأدبية في نشر عقيدته وشعوره ودعوته ، ويكون خير مثال للشاعر المؤمن والعالم الداعي والفيلسوف الحصيف ، ويحدث هزة في الأفكار والآداب في قطر من أعظم الأقطار الإسلامية وأوسعها ، يتجاوز تأثيره إلى أقطار بعيدة ، ويسمع لها صدى في العالم الإسلامي.

ورأينا أنها خير هدية نهديها إلى الجيل الإسلامي الجديد وإلى الشباب العربي الناهض ، فنتقدم بهذا الكتاب عسى أن يجدوا فيه ما يحرك العزم ، ويفتق القريحة ، ويلهب الغيرة، ويتجه بالأدب والفكر اتجاهاً جديداً ، والله من وراء القصد.

المجمع الإسلامي العلمي **أبو الحسن علي الحسني الندوي**
ندوة العلماء لكهنؤ **٣/ ربيع الأول عام ١٣٧٩هـ**

شاعر الإسلام: الدكتور محمّد إقبال
حياته وثقافته ، شاعريته وإنتاجه

ولد محمد إقبال في «سيالكوت» مدينة في بنجاب سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ، أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر في الشاب الذكي كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة

بنجاب ، وانضم إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية والإنجليزية ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)[١] ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير «سيرتامس أرنولد» صاحب كتاب «الدعوة إلى الإسلام» (The preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في علي كره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشىء أول مجلة علمية أدبية في لغة أردو ، اسمها «مخزن» وكان إقبال قد نظم قصيدته الأولى البديعة «جبل هماله» وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (M.À.)[٢] في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً وعين على إثره أستاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية والفلسفة في كلية الحكومة التي تخرج منها ، وشد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ،

---

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنجليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها.
(٢) وهي تعادل «الماجستير» في مصر.

وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة «كامبردج» وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة «ميونخ» الدكتوراه في الفلسفة ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقوله: «ابك أيها الرجل أدمعاً لا دمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية».

ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير والسياسي الحاذق في عدة لغات ، بالمحاماة لكن ما كان هواه في المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته وجل همه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية «حماية الإسلام» السنوية وينشد فيها قصائده ، ومنها «العتاب والشكوى» التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حل

بهم ، وذكر أعمال المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بين فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من «قفا نبك» وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والغرض ، وقال «النشيد الوطني» و«أنشودة المسلم» كلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين.

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليمة بسر ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والامبراطورية الأوروبية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلها دموع حارة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوروبيين ، وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده «البلاد الإسلامية» رد على الوطنية ، و«دعوة إلى الجامعة الإسلامية» و»«يا هلال العيد» و«المسلم» و«فاطمة بنت عبد الله» (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد

طرابلس) و«محاصرة أدرنة» و«الصديق» و«بلال» و«الحضارة الحديثة» و«الدين» و«شكوى إلى الرسول» وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول: «أنا بريء من أولئك الذين يحجون إلى أوربا ويشدون إليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ولا يعرفونك» و«هدية إلى الرسول» وقد قال فيها: «إنه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: ماذا حملت إلينا من هدية؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال: إنها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكني جئت بهدية ، وهي زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس».

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث فانقلب الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشب من حماسته نيراناً ، ويفجر إيمانه وثقته أنهاراً ، وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غر قصائده منها: «خضر الطريق» وفيها قطع ، منها «الشاعر والتجول في الصحراء» و«الحياة» و«الحكومة» و«الرأسمالية» و«الأجير» و«عالم الإسلام» و«طلوع الإسلام» وكلها آية في الشعر والحكمة والحماسة وحقائق الحياة ، أما «طلوع الإسلام» فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة

١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم «بانك درا» يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير.

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته ، فنشر له عدة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية ، والانتشار في العالم الإسلامي ، ويتكلم بها قطران مهمان: إيران وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها وأهل تركستان وروسيا وتركيا ، ونشر مجموعتين بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي «أسرار خودي» يعني (أسرار معرفة الذات) و«رموز بيخودي» (أسرار فناء الذات) و«بيام مشرق» (رسالة الشرق) في جواب كتاب «جوته» «تحية الغرب» ، و«زبور عجم» و«جاويد نامه» و«بس جه بايد كرد أي أقوام شرق» (ماذا ينبغي أن تعمله الشعوب الشرقية) و«مسافر» و«أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) وبالأردية «بال جبريل» (جناح جبريل) و«ضرب كليم» (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة «مدراس» طبعت باسم:

«Reconstruction of religious Thought in Islam»

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه

المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيماً ، وعلقوا عليها أهمية كبيرة ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنجليزية «أسرار خودي» و«رموز بيخودي» وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في «إله آباد» وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م ـ ١٩٣١م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في «مجريط» محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعد

من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده [(١)] .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوروبا أقيمت له عدة حفلات تكريم أقامها له أصدقاؤه وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرج على القدس واشترك في المؤتمر الإسلامي الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة «ذوق وشوق» [(٢)] .

وفي سنة ١٩٣٢م لبى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ورئيس جامعة عليكره الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدث إليه الملك الفقيد طويلاً ،

---

(١) تظهر هذه القصيدة في هذه المجموعة ، انظر «في جامع قرطبة» .

(٢) ظهرت هذه القصيدة في هذه المجموعة بعنوان «في فلسطين» .

وأفضى إليه بذات صدره وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه وافتضح باكياً ، وقال قصيدة حكيمة بديعة [١] ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته «مسافر».

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل أياماً طويلة رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء والزوار والعواد ويحادثهم في شؤون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس، ومما قال قبل وفاته بأيام: «جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعباد والزهاد ، قل للمسلم الهندي: أبشر ، فإن في سبيل الله جنة أيضاً» وقال قبل وفاته بعشر دقائق: «ليت شعري! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلني موتي وحضرتني الوفاة فليت شعري! هل حكيم يخلفني...؟» ، وقال وهو يجود بنفسه: «أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً» ، وكان ذلك آخر برهان إقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على

---

(١) انظر «في غزنين».

حين غفلة من العواد والأصدقاء والتلاميذ والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارة ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨م [١].

* * *

(١) أذيع هذا الحديث في محطة البلاد العربية السعودية عام ١٩٥١ م.

العوامل التي كونت شخصية محمد إقبال [1]

سادتي وإخوتي! يسرني جداً أن أتحدث إليكم عن شاعر الإسلام العظيم وحكيم الشرق الدكتور محمد إقبال، ويزيدني سروراً واغتباطاً أن يكون هذا الحديث في مركز تعليمي وأدبي كبير كدار العلوم، وبهذه المناسبة سيدور حديثي اليوم حول دراسة هذا الرجل العظيم، والمدارس التي تخرج منها، والعوامل التي كونت شخصيته.

المدارس الأولى التي تخرج فيها محمد إقبال:

لقد تخرج محمد إقبال في مدرستين: أما المدرسة الأولى فهي مدرسة الثقافة العصرية والدراسات الغربية، فلم يزل يتقلب في فصولها ودروسها ما بين الهند وإنجلترا وألمانيا، ويقرأ على أساتذتها البارعين، ويروي من مناهلها حتى أصبح من أفذاذ الشرق الإسلامي في ثقافته الغربية، أخذ من علوم الغرب وثقافته وحضارته، من فلسفة واجتماع، وأخلاق واقتصاد، وسياسة

---

(١) من محاضرة ألقيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ١٩ من جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ الموافق ٢٨/ ٣/ ١٩٥١ م.

ومدنية ، غاية ما يمكن لغربي متخصص فضلاً عن شرقي متطفل ، وبلغ بدراسته إلى أحشاء الفلسفة القديمة والجديدة ، هذا إلى توسع في الآداب الإنجليزية والألمانية والشعر الغربي في مختلف أدواره وعصوره، ودراسة الفكر الغربي في مختلف أطواره ومراحل حياته.

المدرسـة الثانيـة:

ولكن لو وقف صاحبنا عند هذا الحد، واكتفى بثمار هذه المدرسة لما كان موضوع حديث اليوم، ولما اشتغل الأدب الإسلامي والتاريخ الإسلامي بالتغني بآثاره، ولما فسحا له محل الصدارة العلمية والزعامة الفكرية العبقرية والإسلامية، ولكن منها شروط دقيقة ومستوى عال لا يحتله الإنسان بمجرد الدراسة والتفنن في العلوم ، وكثرة التأليف والإنتاج ، أقول: لو وقف صاحبنا عند هذه المدرسة واقتصر على ثقافتها ودراستها، لما زاد على أن يكون أستاذاً كبيراً في الفلسفة أو علم الاقتصاد أو في الآداب أو التاريخ، أو مؤلفاً كبيراً، أو محاضراً بارعاً في العلوم العصرية، أو أديباً صاحب أسلوب أو شاعراً مجيداً، أو محامياً ناجحاً في مهنته، أو قاضياً في محكمة، أو وزيراً في دولة ، وصدقوني أيها الإخوة! أن لو كان ذلك لطواه الزمان فيمن طوى من كبار العلماء والأدباء والشعراء والمؤلفين والقضاة والوزراء ، إن الفضل في عبقرية إقبال ، وخلود آثاره ، ونفوذه في العقول والقلوب ، يرجع إلى المدرسة الثانية التي تخرج فيها.

إنني لأراكم أيها الإخوة! تذهبون كل مذهب في تشخيص هذه

المدرسة ، والاهتداء إلى موقعها ، وإني لأراكم تتطلعون إلى معرفة أخبارها، فمن أنشأ هذه المدرسة التي أنجبت مثل هذا الشاعر العظيم؟ وما هي العلوم التي تدرس فيها؟ وما هي لغة التعليم في هذا المعهد؟ ومن المعلمون فيها؟ فلا شك أنهم من كبار المربين وأعظم الموجهين ، فقد أنتجوا مثل هذا النابغة في العلوم ، العملاق في العقل والتفكير، وما هي شروط هذه المدرسة، وما تكاليفها؟ وأظن أن لو علمتم بوجودها ومحلها لأسرع كثير منكم إليها والتحق بها.

إنها مدرسة ما خاب من تعلم فيها ، وما ضاع من تخرج منها ، إنها مدرسة لم تخرج إلا أئمة الفن المجتهدين ، وواضعي العلوم المبتكرين ، وقادة الفكر والإصلاح المجددين ، الذين يشغلون المدارس ورجالها بتفهم ما قالوا ، ودراسة ما كتبوا ، وشرح ما خلفوا ، وتعليل ما ألفوا ، وتأييد ما أثبتوا ، وتفصيل ما أجملوا ، فيتكون من كلمتهم كتاب ، ومن كتابهم مكتبة.

إنها مدرسة ما تعلم التاريخ بل تلد التاريخ ، وما تشرح الفكرة بل تضع الفكرة ، وما تنتخب الآثار ، بل تنتج الآثار ، إنها مدرسة توجد في كل زمان ، وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض.

ولا أمتحن صبركم أيها الإخوة طويلاً! إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان ، ويحملها الإنسان معه في كل مكان ، هي مدرسة القلب والوجدان ، هي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية وتمدها القوة الروحية.

قد تخرج محمد إقبال في هذه المدرسة ، كما تخرج كثير من الرجال الموهوبين ، وحدث عنها كثيراً في شعره ، ورد إليها الفضل في تكوين سيرته وعقليته وأخلاقه وشخصيته ، وصرح مراراً بأنه يدين لهذه المدرسة ما لا يدين للمدرسة الخارجية ، وأنه لولا هذه المدرسة وتربيتها لما ظهرت شخصيته ولما اشتعلت مواهبه ، ولا اتضحت رسالته ، ولا تفتحت قريحته ، وقد حدث عن معلمي هذه المدرسة وأساتذتها كثيراً وذكر فضلهم عليه .

العامل الأول:

فممن يرد الفضل إليه في هذه المدرسة «الإيمان» الذي لم يزل مربياً له ومرشداً ، ولم يزل مصدر قوته ومنبع حكمته ، وليس إيمان محمد إقبال هو الإيمان الجاف الخشيب الذي هو مجرد عقيدة أو تصديق بسيط ، بل هو مزيج اعتقاد وحب ، يملك عليه القلب والمشاعر ، والعقل والتفكير ، والإرادة والتصرف ، والحب والبغض، وقد كان شديد الإيمان بالإسلام ورسالته، قوي العاطفة، شديد الإخلاص ، والإجلال لرسول الله ﷺ ، متفانياً في حبه ، مقتنعاً بأن الإسلام هو الدين الخالد الذي لا تسعد الإنسانية إلا به ، وأن النبي ﷺ هو خاتم الرسل ، والبصير بالسبل ، وإمام الكل .

ويرجع محمد إقبال الفضل في تكوين شخصيته ، وتماسكه أمام المادة ومغرياتها وتيار الحضارة الغربية الجارف إلى الاتصال الروحي بالنبي ﷺ، وحبه العميق له، ولا شك أن الحب هو خير حاجز

للقلب، وخير حارس له ، إذا احتل قلباً وشغله ، منعه من أن يغزوه غيره ، أو يكون كريشة في فلاة ، أو يعبث به العابثون ، يقول: «لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهر لبي ، ويعشي بصري ، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة» ، ويقول: «مكثت في أتون التعليم الغربي وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود» ويقول: «لم يزل ولا يزال فراعنة العصر يرصدونني ويكمنون لي ، ولكني لا أخافهم فإني أحمل اليد البيضاء ، إن الرجل إذا رزق الحب الصادق عرف نفسه ، واحتفظ بكرامته ، واستغنى عن الملوك والسلاطين ، لا تعجبوا إذا اقتنصت النجوم ، وانقادت لي الصعاب ، فإني من عبيد ذلك السيد العظيم الذي تشرفت بوطأته الحصباء ، فصارت أعلى قدراً من النجوم، وجرى في إثره الغبار فصار أعبق من العبير» .

وفي كتاب «أسرار خودي» ذكر الشاعر مقومات حياة الأمة الإسلامية ، والدعائم التي تقوم عليها ، فذكر منها اتصالها الدائم بنبيها ﷺ ، والتشبع بتعاليمه، والتفاني في حبه ، ولما ذكر النبي ﷺ اندفع الشاعر يمدحه، وأرسل النفس على سجيتها ، فقال أبياتاً لا تزال تعد من غرر المدائح النبوية ، والشعر الوجداني ، يقول: «إن قلب المسلم عامر بحب المصطفى ﷺ ، وهو أصل شرفنا ، ومصدر فخرنا في هذا العالم ، إن هذا السيد الذي داست أمته تاج كسرى ، كان يرقد على الحصير ، إن هذا السيد الذي نام عبيده على أسرة الملوك كان يبيت ليالي لا يكتحل بنوم ، لقد لبث

في غار حراء ليالي ذوات العدد ، فكان أن وجدت أمة ، ووجد دستور ، ووجدت دولة ، إذا كان في الصلاة فعيناه تهملان دمعاً ، وإذا كان في الحرب فسيفه يقطر دماً ، لقد فتح باب الدنيا بمفتاح الدين ، بأبي هو وأمي ، لم تلد مثله أم ولم تنجب مثله الإنسانية ، افتتح في العالم دوراً جديداً ، وأطلع فجراً جديداً ، كان يساوي في نظرته الرفيع والوضيع ، ويأكل مع مولاه على خوان واحد ، جاءته بنت حاتم أسيرة مقيدة سافرة الوجه ، خجلة مطرقة رأسها ، فاستحيا النبي ﷺ ، وألقى عليها رداءه.

نحن أعرى من السيدة الطائية ، نحن عراة أمام أمم العالم ، لطفه وقهره كله رحمة ، هذا بأعدائه وذلك بأوليائه ، الذي فتح على الأعداء باب الرحمة ، وقال: لا تثريب عليكم اليوم ، نحن المسلمون من الحجاز والصين وإيران وأقطار مختلفة ، نحن غيض من فيض واحد ، نحن أزهار كثيرة العدد ، واحدة الطيب والرائحة ، لماذا لا أحبه ولا أحن إليه ، وأنا إنسان وقد بكى لفراقه الجذع ، وحنت إليه سارية المسجد ؟! إن تربة المدينة أحب إلي من العالم كله ، أنعم بمدينة فيها الحبيب».

ولم يزل حب النبي ﷺ يزيد ويقوى مع الأيام ، حتى كان في آخر عمره ، إذا جرى ذكر النبي ﷺ في مجلسه أو ذكرت المدينة ـ على منورها ألف سلام ـ فاضت عينه ، ولم يملك دمعه ، وقد ألهمه هذا الحب العميق معاني شعرية عجيبة ، منها قوله وهو

يخاطب الله سبحانه وتعالى: «أنت غني عن العالمين وأنا عبدك الفقير، فاقبل معذرتي يوم الحشر، وإن كان لا بد من حسابي فأرجوك يا رب أن تحاسبني بنجوة من المصطفى ﷺ، فإني أستحي أن أنتسب إليه وأكون في أمته، وأقترف هذه الذنوب والمعاصي».

وكان محمد إقبال كثير الاعتداد بهذا الإيمان، شديد الاعتماد عليه، يعتقد أنه هو قوته وميزته، وذخره وثروته، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل، وأكثر كمية من المعلومات والمحفوظات لا تساوي هذا الإيمان البسيط، يقول في بيت: «إن الفقير المتمرد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين قد تغلغلتا في أحشائه وملكتا عليه فكره وعقيدته، وهما: لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وهنالك علماء وفقهاء، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه».

هذا هو إيمان محمد إقبال أيها السادة! وحبه، ومن تتبع التاريخ عرف أن الحب هو مصدر الشعر الرقيق، والعلم العميق، والحكمة الرائعة، والمعاني البديعة، والبطولة الفائقة، والشخصية الفذة، والعبقرية النادرة، إليه يرجع الفضل في غالب عجائب الإنسانية، ومعظم الآثار الخالدة في التاريخ، وإذا تجرد منه شخص كان صورة من لحم ودم، وإذا تجردت منه أمة كانت قطيعاً من غنم، وإذا تجرد منه شعر كان كلاماً موزوناً مقفى فحسب، وإذا تجرد منه

كتاب كان مجموع أوراق وحبراً على ورق ، وإذا تجردت منه عبادة كانت طقساً من الطقوس وهيكلاً بلا روح ، وإذا تجردت منه مدنية أصبح تمثيلاً لا حقيقة فيه ، وإذا تجردت منه مدرسة أو نظام تعليم أصبح تقليداً أو تكليفاً لا متعة فيه ، ولا حافز له ، وإذا تجردت منه حياة كلت الطبائع ، وجمدت القرائح ، وأجدبت العقول ، وانطفأت شعلة الحياة ، واختفت المواهب ، هذا هو الحب الصادق الذي يتجلى على الرجل ، فيصدر منه من روائع الكلام ، أو خوارق الشجاعة والقوة ، والآثار الخالدة في العلم والأدب ما لم يكن ليصدر منه لولا هذا الحب الذي أشعل موهبته ، وفتح قريحته ، وملك عليه قلبه وفكره ، وأنساه نفسه ، ومتاعب الحياة ، وإغراء الشهوات ، وبريق المادة ، فتمرد بذلك على المجتمع ، هذا هو الحب الذي يدخل بين الطين والماء والحجارة والآجر، فيجعل منها آثاراً خالدة ، وتحفة فنية ، كمسجد قرطبة ، وقصر الزهراء ، والتاج محل ، وما من أثر من الآثار الباقية في الأدب والفن والتأليف والبطولة ، إلا ووراءه عاطفة قوية من الحب.

لقد ضل من زعم أن العلماء يتفاضلون بقوة العلم ، وكثرة المعلومات ، وزيادة الذكاء ، وأن الشعراء يتفاضلون بقوة الشاعرية ، وحسن اختيار اللفظ ودقة المعاني ، وأن المؤلفين يتفاضلون بسعة الدراسة والمطالعة ، وكثرة التأليف والإنتاج ، وأن المعلمين يتفاضلون بحسن الإلقاء والمحاضرة ، واستحضار المادة

الدراسية وكثرة المراجع ، وأن المصلحين والزعماء يتفاضلون بالبراعة في الخطابة وأساليب السياسة والحكمة واللباقة ، إنما يتفاضل الجميع بقوة الحب والإخلاص لغايتهم ، إذا فاق أحدهم الآخر فإنما يفوقه لأن الغاية أو الموضوع حل في قرارة نفسه ، وسرى منه مسرى الروح ، وملك عليه قلبه وفكره ، وقهر شهواته، واضمحلت فيه شخصيته ، فإذا تكلم تكلم عن لسانه ، وإذا كتب كتب بقلبه ، وإذا فكر فكر بعقله ، وإذا أحب أو أبغض فبقلبه.

لقد جنت المدنية الحديثة أيها السادة! على الإنسانية جناية عظيمة ، إذ قضت على هذه العاطفة التي كانت قوة كبرى ، ومنبعاً فياضاً للحياة، وملأت فراغها بالنفعية والمادية، أو الحب الجنسي، والغرام المادي ، ولم تستطع بحكم ماديتها وضيق تفكيرها ، أن تفهم أن هناك حباً للمعاني السامية ، وجمالاً معنوياً هو أقوى من هذا الحب ، وأساءت المدرسة العصرية ـ وأعني بها نظام التعليم الحديث ـ إلى الجيل الجديد ، إذ لم تحتفل بهذه العاطفة والوجدان احتفالاً ما ، ولم تحسن توجيه القلوب وإشعالها بحرارة الإيمان وحياة الوجدان ، فأصبح العالم العصري أشبه بجماد متحرك دائر لا حياة فيه ولا روح ، ولا قلب له ولا شعور ، ولا ألم عنده ولا أمل ، إنما هو دوامة جامدة تديرها يد قاهرة ، أو إرادة قاسرة.

فإذا رأيتم أيها السادة! أن شعر إقبال من نوع آخر غير النوع الذي عرفناه وجربناه في شعرائنا المتقدمين والمتأخرين، وغير الشعر الذي

ندرسه في مدارسنا، هذا شعر تهتز له المشاعر، وتتوتر له الأعصاب، ويجيش له القلب ، وتثور له النفس ، حتى تكاد تحطم السلاسل ، وتفك الأغلال، وتتمرد على المجتمع الفاسد، وتصطدم بالأوضاع الجائرة ، وتستخف بالقوة الهائلة ، شعر إذا قرأه الإنسان في لغة الشاعر، أحس بأنه قد مر به تيار كهربائي فهزه هزاً عنيفاً، إذا وجدتم ذلك أيها السادة! فاعلموا أنه ليس إلا لأن الشاعر قوي الإيمان ، قوي العاطفة ، جياش الصدر ، فياض الخاطر ، ملتهب الروح ، قد أحسنت المدرسة الثانية التي تحدثت عنها تربيته ، وقد أحسن أساتذتها تثقيفه وتغذيته بهذه العاطفة وتنميتها وإشعالها فيه.

العامـل الثانـــي:

أما الأستاذ الآخر الذي يرجع إليه الفضل في تكوين شخصيته وعقليته ، فهو أستاذ كريم لا يخلو منه بيت من بيوت المسلمين ، ولكن ليس الشأن في وجود الأستاذ وكونه بمتناول اليد من تلاميذه ، إنما الشأن في معرفته ، وتقديره وإجلاله والإفادة منه ، وإلا لكان أبناء البيت ورجال الأسرة وأهل الحي أسعد بعالمهم ، وأكثر انتفاعاً من غيرهم ، ولكن بالعكس من ذلك ، رأينا أن العالم الكبير، والحكيم الشهير، والمؤلف العظيم، ضائع في بيته، مهجور في داره ، يزهد فيه أولاده ، ويستهين بقيمته أفراد أسرته ، ويأتي رجل من أقصى العالم فيغترف من بحر علمه، ويتضلع من حكمه.

لا تذهب بكم الظنون ولا يبعد بكم القياس أيها الإخوة! فذلك

الأستاذ العظيم هو القرآن العظيم ، الذي أثر في عقلية إقبال وفي نفسه ما لم يؤثر فيه كتاب ولا شخصية ، ولكنه أقبل على قراءة هذا الكتاب إقبال رجل حديث العهد بالإسلام ، فيه من الاستطلاع والتشوق ما ليس عند المسلمين الذين ورثوا هذا الكتاب العجيب فيما ورثوه من مال ومتاع ودار وعقار، وقد وصل هذا المهتدي بشق النفس وعلى جسر من الجهاد والتعب ، كان سرور محمد إقبال باكتشاف هذا العالم الجديد من المعاني والحقائق أعظم من سرور «كولمبس» لما اكتشف العالم الجديد ونزل على شاطئه ، أما الذين ولدوا ونشؤوا في هذا العالم الجديد فكانوا ينظرون إلى «كولمبس» وأصحابه باستغراب ودهشة ، ولا يفهمون معنى لما كان يخامره من سرور وفرح ، فإنهم لا يجدون في هذا العالم شيئاً جديداً.

لقد كانت قراءة محمد إقبال للقرآن قراءة تختلف عن قراءة الناس، ولهذه القراءة الخاصة فضل كبير في تذوقه للقرآن، واستطعامه إياه، وقد حكى قصته لقراءة القرآن ، وقال: «قد كنت تعودت أن أقرأ القرآن بعد صلاة الصبح كل يوم ، وكان أبي يراني ، فيسألني: ماذا أصنع؟ فأجيبه: أقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات متتاليات يسألني سؤاله، فأجيبه جوابي، وذات يوم قلت له: ما بالك يا أبي! تسألني نفس السؤال وأجيبك جواباً واحداً ، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد؟ فقال: إنما أردت أن أقول لك يا ولدي! اقرأ القرآن كأنما نزل عليك ، ومنذ ذلك اليوم بدأت أتفهم القرآن ،

وأقبل عليه، فكان من أنواره ما اقتبست، ومن درره ما نظمت».

ولم يزل محمد إقبال إلى آخر عهده بالدنيا يغوص في بحر القرآن، ويطير في أجوائه، ويجوب في آفاقه، فيخرج بعلم جديد، وإيمان جديد، وإشراق جديد، وقوة جديدة، وكلما تقدمت دراسته، واتسعت آفاق فكره، ازداد إيماناً بأن القرآن هو الكتاب الخالد، والعلم الأبدي، وأساس السعادة، ومفتاح الأقفال المعقدة، وجواب الأسئلة المحيرة، وأنه دستور الحياة، ونبراس الظلمات، ولم يزل يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى التدبر في هذا الكتاب العجيب، وفهمه ودراسته، والاهتداء به في مشكلات العصر، واستفتائه في أزمات المدنية، وتحكيمه في الحياة والحكم، ويعتب على المسلمين إعراضهم عن هذا الكتاب الذي يرفع الله به أقواماً، ويضع به آخرين، يقول في مقطوعة شعرية: «إنك أيها المسلم لا تزال أسيراً للمتزعمين للدين، والمحتكرين للعلم، ولا تستمد حياتك من حكمة القرآن رأساً، إن الكتاب الذي هو مصدر حياتك ومنبع قوتك، لا اتصال لك به إلا إذا حضرتك الوفاة، فتقرأ عليك سورة «يس» لتموت بسهولة، فوا عجباً! قد أصبح الكتاب الذي أنزل ليمنحك الحياة والقوة، يتلى الآن لتموت براحة وسهولة»(١).

وقد أصبح محمد إقبال بفضل هذه الدراسة العميقة والتدبر،

---

(١) أرمغان حجاز.

لا يفضل على هذا الكتاب شيئاً ، ولا يعدل به تحفة وهدية ، لأغنى رجل في العالم ، وأعظم الرجال علماً وعقلاً ، ولذلك لما دعاه المرحوم نادر خان ملك أفغانستان إلى كابل ، ونزل ضيفاً عليه ، أهدى محمد إقبال إلى الملك نسخة من القرآن ، وقدمها إليه قائلاً : «إن هذا الكتاب رأس مال أهل الحق ، في ضميره الحياة ، وفيه نهاية كل بداية ، وبقوته كان علي رضي الله عنه فاتح خيبر» فبكى الملك وقال: «لقد أتى على نادر خان زمان وما له أنيس سوى القرآن ، وهو الذي فتحت قوته كل باب» [١] .

العامـل الثالـث:

والركن الثالث أيها السادة! في نظام تربيته، وتكوين شخصيته هو معرفة النفس، والغوص في أعماقها، والاعتداد بقيمتها، والاحتفاظ بكرامتها ، وقد عامل نفسه بما نصح به غيره وفي قصيدة يقول فيها : «انزل في أعماق قلبك، وادخل في قرارة شخصيتك ، حتى تكتشف سر الحياة ، ما عليك إذا لم تنصفني وتعرفني ، لكن أنصف نفسك يا هذا! واعرفها ، وكن لها وفياً ، ما ظنك بعالم القلب ، وهو كله حرارة وسكر، وحنان وشوق، أما عالم الجسم فتجارة وزور واحتيال، إن ثروة القلب لا تفارق صاحبها ، أما ثروة الجسم فظل زائل ونعيم راحل، إن عالم القلب لم أر فيه سلطة الإفرنج ولا اختلاف

---

(١) مثنوي مسافر.

الطبقات ، ولقد كدت أذوب حياء ، وتندى جبيني عرقاً إذ قال لي حكيم : إذا خضعت لغيرك أصبحت لا تملك قلبك ولا جسمك» [١].

وقد كان إقبال كثير الاعتداد بمعرفة النفس ، يرى أن العبد يسمو بها إلى درجة الملوك ، بل يعلوهم إذا كان جريئاً مقداماً ، يقول في قصيدة : «إن الإنسان إذا عرف نفسه بفضل الحب الصادق ، وتمسك بآداب هذه المعرفة ، انكشفت على هذا المملوك أسرار الملوك ، إن ذلك الفقير الذي هو أسد من أسود الله ، أفضل من أكبر ملوك العالم» .

إن الصراحة والجرأة من أخلاق الفتيان ، وإن عباد الله الصادقين لا يعرفون أخلاق الثعالب» ، وقد جعلته هذه المعرفة النفسية والاعتداد لا يقبل رزقاً إذا قيد حريته ، يقول في نفس القصيدة: «يا صاح! إن الموت أفضل من رزق يقص من قوادمي ، ويمنعني من حرية الطيران» [٢].

وكان إقبال يعرف قيمته ويعرف مكانته ، في غير صلف ولا غرور ، فيضن بحريته وكرامته ، ويربأ بنفسه عن أن يكون عبداً لغيره ، يقول في مقطوعة : «لك الحمد يا رب! إذ لست من سقط المتاع ، ولست من عبيد الملوك والسلاطين ، لقد رزقتني حكمة

---

(١) بال جبريل.

(٢) بال جبريل.

وفراسة، ولكني أحمدك على أني لم أبعهما لملك من الملوك»[١]، ويقول مفتخراً: «إني من غير شك فقير قاعد على قارعة الطريق، ولكني غني النفس أبي»، وكان عمله بما يخاطب به غيره في قصيدة يقول فيها: «إذا لم تعرف رازقك كنت فقيراً إلى الملوك، وإذا عرفته افتقر إليك كبار الملوك، إن الاستغناء ملوكية، وعبادة البطن قتل للروح، وأنت مخير بينهما، إذا شئت اخترت القلب، وإذا شئت اخترت البطن»[٢]، ولا شك أن محمد إقبال اختار القلب.

لذلك كان يثور إذا جرحت كرامته، وامتحنت عفته، قدم إليه رئيس وزارة في دولة، في عيد ميلاد محمد إقبال، هدية محترمة من النقود فرفضها، وقال: «إن كرامة الفقير تأبى عليّ أن أقبل صدقة الأغنياء»، وعرضت عليه الحكومة البريطانية وظيفة نائب الملك في إفريقية الجنوبية، وكان من تقاليد هذه الوظيفة أن حرم نائب الملك تكون سافرة، تستقبل الضيوف في الولائم الرسمية، وتكون مع زوجها في الحفلات، فأشير عليه بذلك، فرفضها وقال: «ما دام هذا شرطاً لقبول الوظيفة فلا أقبله لأنه إهانة ديني ومساومة كرامتي».

وكان بفضل معرفته بقيمة نفسه شديد الاحتفاظ بقوته ومواهبه، يعتقد أنه صاحب رسالة ومهمة في هذه الحياة، وليس له أن يضع نفسه محل الشاعر الذي ليست له رسالة، والنظامين الذين ينظمون

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.

في كل مناسبة ، فإذا أريد منه غير ذلك ضاقت نفسه ، يقول في أبيات وجهها إلى رسول الله ﷺ: «إني لأشكو إليك يا سيد الأمم! إن أصدقائي يعتقدون أني شاعر نظام ، فيقترحون علي اقتراحات» . ويقول في بيت آخر: «أنا حائر في أمري يا سيدي رسول الله! إنك تأمرني أن أبلغ أمتك رسالة الحياة والقوة ، وهؤلاء يقولون أرخ لموت فلان وفلان ، فماذا أفعل»؟ .

وقد كانت هذه المعرفة من كبار أنصار شخصيته ورسالته ، ومما انتفع بها الإسلام انتفاعاً عظيماً ، وقد عصمت الشاعر من التيه الفكري والهيام الأدبي ، اللذين يصاب بهما أدباؤنا وشعراؤنا وكتَّابنا وعلماؤنا! فينتجعون كل كلأ ، ويهيمون في كل واد ، ويكتبون في كل موضوع وافق عقيدتهم أم لا ، ويمدحون كل شخص ، ويظلون إلى آخر حياتهم لا يعرفون أنفسهم ولا يعلمون رسالتهم ، أما الدكتور محمد إقبال فكان من توفيق الله تعالى، ومن حسن حظ الإسلام والمسلمين في الهند ، أنه عرف نفسه في أول يوم ، وقدر مواهبه تقديراً صحيحاً ، ثم ركز فكره وقوة شاعريته على بعث الحياة والروح في المسلمين ، وإيجاد الثقة والاعتزاز بشخصيتهم ، والإيمان برسالتهم ، والطموح إلى القوة والحرية والسيادة، كان شاعراً مطبوعاً، حتى لو أراد أو أريد ألَّا يكون شاعراً لما استطاع ، ولقهره الشعر وغلبه ، كان سائل القريحة ، فياض الخاطر، ملهم المعاني، مطاع اللفظ، وكان مبدعاً يوم كان شاعراً،

وكان فناناً وصناعاً ماهراً، سلم له شعراء العصر بالإمامة والإعجاز، وتأثر بشعره الجو ، فما من شاعر ولا أديب في عصره إلا تأثر به في اللغة أو التراكيب والمعاني والأفكار والأغراض ، وهو من أفذاذ شعراء العالم في التفنن والإبداع، وابتكار المعاني، وجدة التشبيه ، والاستعارات ، وقد ساعده في ذلك اتصاله بالشعر الإنجليزي والألماني ، فضلاً عن الفارسي الذي هو خاتم شعرائه ، ولكن ليس هذا كل ما يمتاز به محمد إقبال ، فعصره لا يخلو من شعراء ، ولا يخلو من شعراء مجيدين ، ولكنه امتاز بأنه أخضع شاعريته القوية، وقوته الأدبية ، وعبقريته الفنية لرسالة الإسلام ، فلم يكن شاعر ملك ، ولا شاعر الوطنية ، ولا شاعر الهوى والشباب ، ولا شاعر الحكمة والفلسفة ، بل كان صاحب رسالة إسلامية ، استخدم لها الشعر كما تستخدم للرسائل أسلاك الكهرباء فتكون أسرع وصولاً، ولطيب الأزهار نفحات الهواء فيكون أكثر انتشاراً ، فكان الشعر حامل رسالته ، ورائد حكمته ، يسبقها ويوطىء لها أكنافاً ، ويذلل لها صعاباً ، ويفتح أبواباً ، وكان شعره من جنود الإسلام ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولا أعرف أحداً يستخدم شعره لغرض أسمى، وغاية أجدى منه، فأيقظ أمة، وأشعل قلوبها إيماناً وحماسة وطموحاً إلى حياة الشرف والاستقلال والسيادة والحكم الإسلامي ، حتى أصبحت هذه الأمة لا ترضى إلا بدولة تحكمها وتدير دفتها ، أوجد بشعره القوي الهزاز القلق الفكري ،

والاضطراب النفسي ، الذي عم هذا الشعب المسلم ، وساور الشباب الإسلامي بصفة خاصة ، فأصبحوا لا يرتاحون ، ولا يهدأ لهم خاطر في حياة العبودية والذلة وحكم الأجانب ، حتى أصبحت في يوم من الأيام الدولة المسلمة الحرة حقيقة راهنة وواقعاً ملموساً.

ولا نعرف شاعراً أو أديباً يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة وتهيئة النفوس لها مثل ما يرجع إلى هذا الشاعر الإسلامي، وتعلمون جميعاً أن الدول تسبقها الثورات الفكرية، والتذمر من الحاضر ، والتطلع إلى المستقبل ، والقلق النفسي ، فإذا تم هذا كله ونضج ، قامت دولة ، فإن كان شعر قد أقام دولة ، وأحدث ثورة فكرية ، كانت سبب الانتقال من حياة إلى حياة ومن وضع إلى وضع ، فهو من غير شك شعر إقبال ، وما ذاك أيها الإخوة! إلا بمعرفة الرجل نفسه، وتقديره لمواهبه وقوته، ووضعها في محلها ، والغيرة عليها من أن تضيع في موضوعات تافهة ، وألفاظ فارغة ، وألوان زاهية ، ومظاهر الجمال الفانية ، وكم ضاع رجال من العبقريين وأهل المواهب الكبيرة لعدم معرفتهم أنفسهم ، وقيمة ما يحسنون ، وما يمتازون به عن أقرانهم فباعوا أنفسهم وعلمهم بالمناداة ، أو باللغة المصرية «بالمزاد العلني» وقتلوا إنسانيتهم قبل أن يقتلها غيرهم ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

العـامـل الرابــع:

والمربي الرابع أيها السادة! الذي يرجع إليه الفضل في تكوين

سيرته وشخصيته ، وفي قوة شعره وتأثيره ، وجدة المعاني ، وتدفق الأفكار ، هو أنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ، والاشتغال بالمطالعة ، بل كان يتصل بالطبيعة من غير حجاب ، ويتعرض للنفحات السحرية ، ويقوم في آخر الليل ، فيناجي ربه ، ويشكو بثه وحزنه إليه ، ويتزود بنشاط روحي جديد ، وإشراق قلبي جديد ، وغذاء فكري جديد ، فيطلع على أصدقائه وقرائه بشعر جديد ، يلمس الإنسان فيه قوة جديدة ، وحياة جديدة ، ونوراً جديداً ، لأنه يتجدد كل يوم ، فيتجدد شعره ، وتتجدد معانيه .

وكان عظيم التقدير لهذه الساعات اللطيفة التي يقضيها في السَّحَر، ويعتقد أنها رأس ماله ورأس مال كل عالم ومفكر ، لا يستغني عنها أكبر عالم أو زاهد ، يقول في بيت: «كن مثل الشيخ فريد الدين العطار في معرفته ، وجلال الدين الرومي في حكمته ، أو أبي حامد الغزالي في علمه وذكائه ، وكن من شئت في العلم والحكمة ، ولكن لا ترجع بطائل ، حتى تكون لك أنة في السَّحَر» ، وكان شديد المحافظة على ذلك ، كثير الاهتمام به ، يقول في مطلع قصيدة: «رغم أن شتاء إنجلترا كان قارساً جداً ، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف ، ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام» ، وكان لا يبغي به بدلاً ، ولا يعدل به شيئاً ، يقول في بيت: «خذ مني ما شئت يارب! ولكن لا تسلبني اللذة بأنة السَّحَر ، ولا تحرمني نعيمها» ، بل كان يتمنى على

الله أن تتعدى هذه الأنة السَّحَرية والحرقة القلبية إلى شباب الأمة المتنعمين ، فتحرك سواكن قلوبهم ، وتنفخ الحياة في هياكلهم ، يقول في قصيدة: «اللهم! جرح أكباد الشباب بسهام الآلام الدينية ، وأيقظ الآمال والأماني النائمة في صدورهم ، بنجوم سمواتك التي لا تزال ساهرة ، وبعبادك الذين يبيتون الليل سجداً وقياماً ، ولا يكتحلون بنوم ، ارزق الشباب الإسلامي لوعة القلب ، وارزقهم حبي وفراستي» ، ويقول في قصيدة: «اللهم ارزق الشباب أنتي في السَّحَر ، وأنبت لصقور الإسلام القوادم والخوافي ، التي تطير بها وتصطاد ، وليست لي أمنية يا رب! إلا أن تنتشر فراستي ، ويعم نور بصيرتي في المسلمين».

العامل الخامس:

والعامل الأخير والمؤثر الكبير في تكوين عقليته وتوجيه رسالته أيها السادة! هو «المثنوي المعنوي» بالفارسية ، وقد كتبه مولانا جلال الدين الرومي في ثورة وجدانية ونفسية شديدة ، ضد الموجة العقلية الإغريقية التي اجتاحت العالم الإسلامي في عصره ، وقد انتصر فيه للإيمان والوجدان انتصاراً قوياً ، وانتصف للقلب والروح والعاطفة والحب الصادق والمعاني الروحية ، من المباحث الكلامية الجافة ، والقشور الفلسفية التي كانت تشغل أذهان المسلمين والمدارس الدينية والأوساط العلمية في الشرق الإسلامي ، والكتاب متدفق قوة وحياة ، زاخر بالأدب العالي

والمعاني الجديدة ، والأمثال الحكيمة ، والحكم الغالية ، والنكت البديعة ، وطابعه العاطفة القوية ، والطبع الريان الذي يملي هذه المنظومة التي لاتزال فريدة في موضوعها في مكتبة الإسلام العامرة ، ولا يزال له التأثير القوي في تحرير الفكر من رق العقل ، والتقديس الزائد للقيم العقلية، والخضوع للمادية الرعناء، ويبعث التمرد على عالم المادية الضيق، والتطلع إلى أجواء الروح الفسيحة، وكان العالم في عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلي الأوروبي الذي جرف جميع القيم الروحية والخلقية ، وقد زادت الآلات الميكانيكية هذه الحضارة بعداً عن المعاني الروحية ، والمبادىء الخلقية، وما بعد الطبيعة، فأصبحت حضارة عقلية ميكانيكية، وقد قضى محمد إقبال فترة من الزمن ينازعه عاملان: عامل العقل ، وعامل القلب، وقام صراع بين عقله المتمرد وعلمه المتجدد، وقلبه الحار الفائض بالإيمان ، وفي هذا الاصطراع الفكري والاضطراب النفسي ، ساعده المثنوي مساعدة غالية ، ودافع عن عاطفته وقلبه دفاعاً مجيداً ، وحل به كثيراً من ألغاز الحياة ، ولم يزل محمد إقبال يعرف له الجميل ، ويحفظ له هذا الفضل ، ويذكر في كثير من أبياته ، ويعزو إليه كثيراً من الحقائق والحكم ، يقول في بيت يخاطب فيه أحد المأخوذين بسحر الغرب: «قد سحر عقلك سحر الإفرنج ، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومي ، وحرارة إيمانه ، لقد استنار بصري بنوره ، ووسع صدري بحراً من العلوم» ، ويقول

في بيت: «لقد أفدت من صحبة شيخ الروم أن كليماً واحداً ـ يشير إلى سيدنا موسى ـ هامته على راحته يغلب ألف حكيم قد أحنوا رؤوسهم للتفكير» ، وكان محمد إقبال يرجو أن يجدد علمه ورسالته في القرن العشرين ، ويخلفه في مهمته العلمية ، والروحية ، وكان يشعر أن الشيخ لا يزال يفوقه في الجانب الروحي ، وقد أشار إلى ذلك إشارة لطيفة ، يقول في قصيدة: «لم ينهض رومي آخر من ربوع العجم مع أن أرض إيران لا تزال على طبيعتها ، ولا تزال تبريز [١] كما كانت ، إلا أن إقبال ليس قانطاً من تربته ، فإذا سقيت بالدموع نبتت نباتاً حسناً ، وأتت بحاصل كبير».

هذه هي العوامل البارزة التي كونت شخصية محمد إقبال وهذه هي آثار تربية المدرسة الثانية التي تخرج فيها ، ولا شك أنها أقوى من آثار المدرسة الأولى ، وكميات من المعلومات وافرة ، فقد علمته المدرسة الثانية المتعددة الجوانب ، كيف يستعمل هذه المعلومات وكيف يخدم بها نفسه وأمته ، وقد منحته المدرسة الثانية العقيدة الراسخة ، والإيمان القوي ، والخلق المستقيم ، والتفكير السليم ، والرسالة الفاضلة.

* * *

---

(١) مدينة في إيران ، منها شمس الدين التبريزي ، شيخ الرومي في التصوف.

نظرة محمد إقبال إلى نظام التعليم العصري ومراكزه [1]

نقده لنظام التعليم:

نظر محمد إقبال إلى نظام التعليم الحديث ، فرأى فيه مواضع ضعف كثيرة ، وجوانب نقص عظيمة ، فتناولها بالانتقاد في صراحة وشجاعة ، ولفت إليها أنظار الرجال القائمين عليها ، وذكر من جنايات المدرسة ـ ويقصد بها نظام التعليم الحديث ـ على هذا الجيل شيئاً كثيراً تفيض به دواوين شعره ، يقول في بيت: «لقد خرجت من المدرسة والزاوية حزيناً ، لم أجد فيهما الحياة ، ولا الحب ، ولا الحكمة ، ولا البصيرة» ، ويقول في بيت آخر: «أما رجال المدرسة ففاقدو البصر ، وميتو الذوق ، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمة ، ضعيفو الطلب ، قليلو البضاعة».

---

(١) من محاضرة ألقيت في كلية دار العلوم بالقاهرة في ١٩ جمادى الآخرة ١٣٧٠ هـ.

جنايـات المدرسـة:

ومن رأي محمد إقبال أن التعليم الحديث قد جنى على هذا الجيل جناية عظيمة إذ اعتنت بتربية عقله وتثقيف لسانه ، ولم تعتن شيئاً بتغذية قلبه وإشعال عاطفته ، وتقويم أخلاقه وتهذيب نفسه ، فنشأ جيل غير متوازن القوى غير متناسب النشأة ، قد تضخم وكبر بعض نواحي إنسانيته وحياته على حساب بعض ، وأصبحت المسافة بين ظاهره وباطنه ، وعقله وقلبه ، وعلمه وعقيدته ، مسافة شاسعة ، بل أصبح التفاوت بين عقله وجسمه كبيراً ، فالأول ضخم كبير ، والثاني ضعيف ناعم ، وهو إذا وصف هذا الجيل الذي عاش فيه وعرفه عن كثب واتصال ، صوره تصويراً صادقاً ، ينطبق تمام الانطباق على أبناء المدارس والشباب الجديد ، يقول:

«إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين ، مصقول الوجه ، مظلم الروح ، مستنير العقل ، كليل البصر ، ضعيف اليقين ، كثير اليأس ، لم يشاهد في هذا العالم شيئاً ، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ، ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي كنائس وأدياراً ، شباب ناعم ، رخو رقيق في الشباب كالحرير ، يموت الأمل في مهده في صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية ، إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل الناس لنفوسهم ، وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية

فيمدون أكفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم في ذلك ، إن المعلم لا يعرف قيمتهم ، فلم يخبرهم بشرفهم ، ولم يعرفهم بشخصيتهم ، مؤمنون ولكن لا يعرفون سر الموت ، ولا يؤمنون بأنه لا غالب إلا الله ، يشترون من الإفرنج اللات ومناة ، مسلمون لكن عقولهم تطوف حول الأصنام ، إن الإفرنج قد قتلوه من غير حرب وضرب ، عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لا تذوب بالقوارع ، كل ما عندهم من علم وفن ، ودين وسياسة ، وعقل وقلب يطوف حول الماديات ، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة ، وأفكارهم لا تساوي شيئاً ، حياتهم جامدة ، واقفة متعطلة».

ويذكر محمد إقبال أن السبب في جبن هذا الجيل وضعفه الخلقي الوضع التعليمي الحاضر ، وإهماله للجانب الخلقي ونشأة الشباب المتحللة ، يقول في قصيدة: «لا أستغرب أيها الشباب المتعلم! إنك حيي جبان ، فإن قلبك بارد لا لوعة فيه ولا حرارة ، ونظرك غير عفيف ، إن الشباب المثقف الذي استنارت عينه بنور الإفرنج قد يكون لبقاً في الحديث متشدقاً في الكلام ، ولكن عينه لا تعرف الدموع وقلبه لا يعرف الخشوع».

ويرى محمد إقبال أن المدرسة هي المسؤولة عن هذا المسخ الخلقي ، وهي التي نزلت بالشباب المسلم عن مقامه الرفيع إلى المحل الوضيع ، يقول في بيت: «أشكو إليك يا رب! من ولاة

التعليم الحديث، وإنهم يربون فراخ الصقور تربية بغاث الطيور، وأشبال الأسود تربية الخروف»، ومن أسباب هذا الضعف النفسي هو العقل المثبط الذي يمنع من المغامرات والمخاطرة بالنفس، ويحذر من سوء العاقبة، ويكبر الأخطار، يقول في بيت: «إن التعليم قد باعدك من الجنون الذي كان ينازع العقل»، ويقول له: «لا تعلل ولا تثبط عن المغامرة، إن الأسرار التي حجبتها عنك المدرسة لا تزال مكشوفة في خلوات الجبال والصحارى»، ومن أكبر أسباب هذا الضعف: الذل والتقدير الزائد للمادة، والنظر إلى الوظيفة والمرتب كغاية للتعليم، يقول في بيت: «إن ذلك العلم سم ناقع للأفراد الذين ليست لهم غاية، إلا حفنتان من شعير» (يعني الراتب الذي يتقاضاه الموظف).

مآخذه على التعليم:

ومن أكبر مآخذه على هذا التعليم أنه يبعث على التعطل وحب الهدوء والراحة، ويجعل المتعلم كالمحيط الهادىء، لا حركة فيه ولا اضطراب، يقول في بيت: «رماك الله أيها المتعلم بطوفان، فإن بحرك هادىء لا اضطراب في موجه»، وكذلك يبعث هذا التعليم في الشباب المسلم «تفرنجاً» وحب الزينة، يقول في قصيدة: «إن مقاعدك أيها الشباب المسلم! إفرنجية وزرابيك إيرانية، وإني أكاد أبكي دماً إذا رأيتك في هذا الترف والبذخ، لا خير فيك ولو أصبحت ملك الدنيا ما دمت متجرداً من قوة علي

رضي الله عنه واستغناء سليمان رضي الله عنه».

ومن مآخذه على هذا التعليم أنه يحدث الفوضى الفكرية ، يقول في بيت: «إن المدرسة تحرر العقل بلا شك ولكنها تترك الأفكار بغيرنظام وارتباط».

ومن مآخذه على نظام التعليم العصري والمدرسة التي تمثله وتؤدي رسالته أنها مصابة بالتقليد والجمود ، ومجردة من الابتكار والاجتهاد ، يقول في قصيدة: «إن العالم أسير التقاليد والأوضاع ، وإن المدرسة منحصرة في نطاق ضيق ، يا للأسف! إن الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يكونوا أئمة زمانهم أصبحت عقولهم بالية ، وفقدت كل نشاط وجدة فاقتنعوا بتقليد عصرهم».

إن الدكتور محمد إقبال لا يرى أن هذا الجيل حي قائم بنفسه ، ويفكر بعقله ، إنه يعتقد أنه ظل لأوروبا وأن حياته عارية من الغرب ، يقول في بيت: «يتراءى لك أن الشباب المتعلم حي يرزق ، ولكنه في الحقيقة ميت ، استعار حياته من الغرب» ويخاطب المتفرنج ويقول: «ليس وجودك إلا تجلي الإفرنج ، لأنك بناء قد بنوه ، هذا الجسم العنصري فارغ من معرفة النفس ، فأنت غمد محلى بغير سيف ، وجود الله غير ثابت في نظرك ، ووجودك أنت غير ثابت في نظري».

ومن رأيه أن نظام التعليم الغربي قد أضعف الروح المعنوية في الشباب المسلم ، وجنى على رجولته جناية عظيمة ، فأصبح شباباً

رخواً رقيقاً مائعاً ، لا يستطيع الجهاد، ولا يتحمل المكروه ، يقول في قصيدة يخاطب فيها بعض المربين : «حيا الله شبيبتك ، يا مربي الجيل الجديد! ألق عليهم درس التواضع ، وهضم النفس مع الاعتزاز بالنفس والاعتداد بالشخصية ، علمهم كيف يشقون الصخور ويدكون الجبال ، فإن الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج ، إن عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم وأوهنت قلوبهم ، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم ، وتحارب الفوضى الفكرية» ، وكان لا يغتفر هذه الجريمة ، يقول في موضع آخر : «أنا لا أقيم لذلك العلم وتلك الحكمة وزناً ، الحكمة التي تجرد المجاهد من سلاحه وتجعله أعزل ضعيفاً» .

* * *

نظـرة محمـد إقبـال إلـى العلـوم والآداب

آراؤه فــي العلــوم والآداب:

للدكتور محمد إقبال آراء حصيفة في العلوم والآداب والشعر ، هي عصارة تفكيره وتجاربه ، منها: أن الأدب موهبة كبيرة من مواهب الله ، وقوة عظيمة ، يحدث به صاحبه انقلاباً في المجتمع ، وثورة فكرية ، يضرب به الأوضاع الفاسدة الضربة القاضية ، ويشعل القلوب حماسة وغضباً ، ويشعل البلاد ناراً وثورة ، ويملأ النفوس قلقاً واضطراباً ، وتذمراً من الشر ، وتطلعاً إلى الخير ، فلا بد أن يكون في قلم الأديب والشاعر التأثير الذي كان في عصا موسى ، وأن يؤدي رسالته في العالم ، وكل أدب استغل لجمع المادة، أو لإرضاء الأغنياء والأثرياء ، أو إثارة الشهوات ، أو على الأقل كان أداة للهو والتسلية ، والتذوق والجمال والتغني به ، فهو أدب ضائع مظلوم ، استعمل لغير ما خلق له ، ولغير ما وهب له ، يقول في بيت: «أنا لا أعارض التذوق بالجمال والشعور به ، فذلك أمر طبيعي ، ولكن أي فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر».

ويعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز ، حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحي ، ويسقى بدمه ، ويصف مهمة الأدب والشعر ورسالتهما ، ويقول:

«يا أهل الذوق والنظر العميق ، أنعم وأكرم بنظركم ، ولكن أي قيمة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر ولا في صوت مغن ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس ، لا بارك الله في نسيم السَّحَر ، إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول، والذوي والذبول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة ، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً ، وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اصطراعاً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟ ولا نهضة للأمم إلا بمعجزة، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى».

يقول محمد إقبال هذا ، ويرى بالعكس أن الأدب في الشرق الإسلامي قد أصبح تتحكم فيه المرأة ، فأصبح لا يتحدث إلا عنها ، ولا يتغنى إلا بها ، ولا يبحث إلا فيها ، ولا يصور إلا إياها ، ولا يرى في الكون إلا ظلها وجمالها ، وهذه عقيدة جديدة في «وحدة الوجود» التي يمكن أن تسمى «الوجودية الأدبية» كأن الأدب العصري ينادي بلسان حاله «لا موجود إلا المرأة» أو «لا موجود إلا الفتاة» ، يقول محمد إقبال: «أسفاً للشعراء

والرسامين وكتاب القصة في بلادنا ، لقد استولت على أعصابهم المرأة» ، ولا شك أنه تصوير صادق للاتجاه الأدبي العام في الشرق الإسلامي ، واندفاع الأدب المتهور وراء المرأة وهيامه بها ، وإعراضه عما سواها.

وله في الفلسفة وعلوم الحكمة كذلك رأي خاص، فهو يرى أن الفلسفة لا تعيش إلا بالجهاد والتضحية ، وأن الفلسفة التي تقتصر على الدراسات والبحوث العلمية ، وتتلهى بالمناقشات اللفظية ومباحث ما بعد الطبيعة ، ولا تدخل في صميم الحياة ولا تتعرض للمجتمع ، وتعيش في العزلة عن العالم ، إنما هي فلسفة منهارة لا تستطيع أن تعيش ، يقول في بيت: «إن الفلسفة التي لم تكتب بدم القلب فلسفة ميتة أو محتضرة».

وقد انتهت به دراسته للفلسفة ، وتوفره على مطالعتها ونقدها ، والتفكير الطويل العميق ، إلى إخفاق الفلسفة في حل مشكلات الحياة، وأنها صَدَفَـة لامعة خالية من اللؤلؤ، وهي بمعزل عن الحياة والكفاح ، لا تساعد البشر ولا تمنحهم دستوراً للحياة ، وأن الدين هو الذي ينظم المجتمع، وينور الطريق ويقدم دستوراً للحياة، وأن سيدنا محمداً ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يستفاد منه هذا العلم.

عرف الشاعر صديقاً له من الهاشميين قد أثرت فيه الفلسفة تأثيراً كبيراً، وتزلزلت عقيدته الإسلامية ، فكتب إليه محمد إقبال قصيدة

يقول فيها: «أنا رجل كما تعرف أنتهي في أصلي إلى سومنات [1]، وكان أبي من عباد اللات ومناة، وإن أسرتي عريقة في البرهمية، ولكن يجري في عروقك دم الهاشميين، وتنتمي إلى سيد الأولين والآخرين، وقد امتزجت الفلسفة بلحمي ودمي، وجرت مني مجرى الروح، أنا، وإن كنت لا أحسن شيئاً فلا شك أني نزلت في أعماق هذه الفلسفة وتغلغلت في أحشائها، وبعد ذلك أقول: إن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة، وإنها لا تزيد صاحبها إلا بعداً عن صميم الحياة، وإن بحوثها وتدقيقاتها تقضي على روح العمل، هذا «هيجل»، الذي تبالغ في تقديره، إن صدفته خالية من اللؤلؤة، وإن نظامه ليس إلا وهماً من الأوهام، لقد انطفأت شعلة القلب في حياتك أيها السيد! وفقدت شخصيتك، فأصبحت أسيراً «لبرجسان»، إن البشرية تريد أن تعلم: كيف تتقن حياتها، وكيف تخلد شخصيتها، إن بني آدم يطلبون الثبات ويطلبون دستوراً للحياة، ولكن الفلسفة لا تساعدهم في ذلك، بالعكس من ذلك، إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه، أشرق العالم واستيقظ الكون، إن الدين هو الذي ينظم الحياة، وإنه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ، فعليك أيها السيد! بتعاليم جدك ﷺ، إلى متى يا بن علي! (رضي الله عنه) تقلد أبا علي (ابن سينا)، إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشي

---

(١) المعبد الوثني المعروف في الهند، الذي فتحه السلطان محمود الغزنوي، وحطم صنمه الأكبر.

(يعني رسول الله ﷺ) خير لك من القائد البخاري (يعني ابن سينا)».

وبالإجمال إن الدكتور محمد إقبال يرى أن نظام التعليم الحديث قد أخفق في أداء رسالته، وأخفق في إنتاج جيل جديد، يحسن الانتفاع بمعلوماته، ويحسن استعمال مادته العلمية، وثروته الثقافية، ويضع كل شيء في محله، ويعيش حياة سعيدة مطمئنة، وبالعكس من ذلك وجد جيل مثقف ثقافة عالية، يعرف عن مجاهل إفريقية والقطب الشمالي، وعن حياة الحيوان والنبات شيئاً كثيراً، ولا يعرف عن نفسه إلا قليلاً، ويسخر البخار والكهرباء، ويسخر الطاقة الذرية في الزمن الأخير، ولا يملك نفسه وقوته، ويطير في الهواء كالطير، ويسبح في البحار كالسمك، ولا يحسن أن يمشي على الأرض، وما ذلك إلا لأن التعليم قد اختل ميزانه وفسد مزاجه، وكيف يستقيم الظل والعود أعوج؟! يقول في قصيدة: «من الغريب أن من اقتنص أشعة الشمس، لم يعرف كيف ينير ليله وكيف يصبح، وأن من بحث عن مسالك النجوم وطرقها، لم يستطع أن يسافر في بيداء أفكاره، ومن عكف على الألغاز يحلها ويشرحها لم يستطع أن يميز النفع من الضرر».

تصوير للشباب المسلم:

وفي الأخير أن الدكتور محمد إقبال يتمنى للإسلام جيلاً جديداً، شبابه طاهر نقي، وضربه موجع قوي، إذا كانت الحرب فهو في صولته كأسد الشرى، وإن كان الصلح فهو في وداعته كغزال الحمى،

يجمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ، هذا مع الأعداء وذلك مع الأولياء ، إذا تكلم كان رقيقاً رفيقاً ، وإذا جد في الطلب كان شديداً حفياً ، وكان في حالتي الحرب والصلح عفيفاً نزيهاً ، آماله قليلة ، ومقاصده جليلة ، غني القلب في الفقر ، فقير الجسم والبيت في الغنى ، غيور في العسر ، رؤوف كريم عند اليسر ، يظمأ إن أبدى له الماء منة ، ويموت جوعاً إن رأى في الرزق ذلة ، إذا كان بين الأصدقاء كان حريراً في النعومة ، وإن كان بين الأعداء كان حديداً في الصلابة، كان طلاً وندى، تتفتح به الأزهار وترف به الأشجار ، وكان طوفاناً تصطرع به الأمواج وترتعد له البحار ، إذا عارض في سيره صخوراً وجبالاً كان شلالاً ، وإن مر في طريقه بحدائق كان ماء سلسالاً، يجمع بين جلال إيمان الصديق، وقوة علي، وفقر أبي ذر، وصدق سلمان ، يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، يعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السحر ، الشهادة في سبيل الله أحب إليه من الحكومات والغنائم ، يقتنص النجوم ، ويصطاد الأسود ، ويباري الملائكة ، ويتحدى الكفر والباطل أينما كان ، يرفع قيمته ويزيد في سعره ، حتى لا يستطيع أن يشتريه غير ربه ، شغلته مآربه الجليلة ، وحياة الجد والجهاد عن زينة الجسم والتأنق في اللباس ، شعر بإنسانيته ، فترفع عن تقليد الطاووس في لونه، والعندليب في حسن صوته.

* * *

الحضَارة الغربيّة والتربيـة الغربيّة

نقـد للحضـارة الغربيـة:

بدأ الشباب الإسلامي الذكي في فجر القرن العشرين يتوسعون في الدراسات الغربية ، ويتعمقون فيها في الجامعات الهندية الراقية ، وقد زالت عنهم دهشة الفتح وهيبة الإنجليز ، وبدأت بعثات ثقافية ترحل إلى أوروبا ، ويقيم عدد كبير منهم في عواصمها إقامة طويلة ، ينهلون من مناهلها الثقافية ، ويدرسون العلوم العصرية بدقة وإتقان تحت إشراف أساتذة كبار أحرار ، ويعرفون الحضارة الغربية عن كثب لا عن كتب ، بل يخوضون فيها ، ويسبرون غورها ، ويعجمون عودها ، كأي شاب غربي مثقف من أبناء البلد ، ويدرسون الفلسفات والنظم والمدارس الفكرية ، ويطلعون على دخائلها وأسرارها ، وعلى الطبيعة الغربية المادية ، والنخوة القومية الأوروبية والأثرة الشعبية في نفوس هذه الشعوب ، ويرون جوانب الضعف ، وبوادر الإفلاس وطلائع الانهيار في المجتمع الغربي ، ويلاحظون العناصر الصالحة البناءة ، المسعدة للبشرية ، المفقودة في تركيب هذه الحضارة ، وفي طبيعة زعمائها

وحملة لوائها، وعناصر الفساد المدمرة للمدنية، المضللة للبشرية، الموجودة في عجينها المركبة مع طينها ، من اليوم الأول ، فيثير كل ذلك في نفوسهم وعقولهم معاني وأحاسيس لم تكن ممكنة إلا مع الإقامة في أوروبا ، والتعمق في فلسفاتها وأفكارها ، والدراسة المقارنة ، وإلا مع النظر العميق الجريء ، والتحرر من ربقة التقليد ، وإلا مع الإيمان لم يتجردوا عنه، بل بقي جمرة في رماد ، مستعدة للالتهاب في كل وقت ، فيرجع كثير منهم يائساً من مستقبل الحضارة الغربية ثائراً عليها ، ناقداً نقداً جريئاً عميقاً متزناً ، لا تطرف فيه ولا إنكار للواقع ، ولا مكابرة في الحقائق.

لقد كان في مقدمة هؤلاء الناقدين الثائرين محمد إقبال الذي يعتبر بحق أنبغ عقل أنتجته الثقافة الجديدة التي ظلت تشتغل وتنتج في العالم الإسلامي من قرن كامل ، وأعمق مفكر أوجده الشرق في عصرنا الحاضر ، ولم نر من نوابغ الشرق وأذكيائه ـ على كثرة من أمَّ الغرب منهم ودرس هناك ـ أحداً نظر في الحضارة الغربية هذا النظر العميق، وانتقدها هذا الانتقاد الجريء.

إن محمد إقبال قد لاحظ جوانب الضعف الأساسية في هذه الحضارة وتركيبها ، والفساد الذي عجنت به طينتها ، لاتجاهها المادي ، وثورة أصحابها على الديانات ، والقيم الخلقية والروحية عند نهضتها ، وعلل فساد القلب والفكر الذي اتسمت به هذه الحضارة بكون روح هذه المدينة ملوثة غير عفيفة ، وقد جردها

تلوث الروح عن الضمير الطاهر ، والفكرالسامي والذوق السليم ، وتسلط عليهم ـ رغم المدنية الباذخة ، والحكومات الواسعة ، والتجارة الرابحة ـ القلق الدائم ، ولقد أظلم الجو في عواصمها بدخان المصانع المتصاعد الكثيف ، ولكن بيئتها ـ على كثرة أنوارها ـ غير متهيئة لفتح جديد في الفكر وإشراق من عالم الغيب ، إنه نوه بأساس الحضارة اللادينية ، وبأنها عجنت مع الثورة على الدين ، فهي في خصومة دائمة مع الدين والأخلاق ، وإنها عاكفة على عبادة آلهة المادة وتؤسس لها معبداً جديداً ، يقول في ديوانه «ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق» :

«ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق ، إن هذه الفتانة تجلب فتناً ، وتعيد اللات والعزى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها ، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها ، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب ، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً ، إنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له» ، يقول : إن شعار هذه الحضارة الغارة على الإنسانية ، والفتك بأفراد النوع البشري ، وإن شغلها الدائم التجارة ، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء ، وبالحب البريء النزيه ، والإخلاص لله إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة ، يقول في الديوان الذي مر ذكره :

«إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم ، الذي تقوم عليه

تجارتها ، وتنفق سلعتها ، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء ، الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم ، إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم يعد هذا النظام رأساً على عقب» .

«إنها حضارة شابة ـ بحداثة سنها ، والحيوية الكامنة فيها ـ ولكنها محتضرة تعاني سكرات الموت ، وإن لم تمت حتف أنفها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها ، ولا غرابة في ذلك ، فإن كل وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار ، ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود ، إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار ، وجدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة ، إن الفكر المارد الذي أزاح الستار عن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدد وكر الغربيين ومهدهم ، إن العصر يتمخض عن عالم جديد ، وإن العالم القديم الذي حوله الغربيون مكاناً للقمار (يقامر فيه بأمن العالم وكرامة الأمم) يلفظ نفسه ، إن نور الحضارة باهر ، وشعلة حياتها ملتهبة وهاجة ، ولكن لم يكن في ربوعها من يمثل دور موسى فيتلقى الإلهام ، ويتشرف بالكلام ، ولا من يمثل دور إبراهيم فيحطم الأصنام ، ويحول النار إلى برد وسلام ، إن عقلها الجريء يغير على ثروة الحب وينمو على حساب العاطفة ، إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون ـ حتى في ابتكارهم وثورتهم ـ عن الطريق المرسوم والدائرة المحدودة» .

«لقد تضخم العلم وتقدمت الصناعة في أوروبا ، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة ، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء ، وحسن المظهر والنظافة ، إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسر ملايين ، إن هذا العلم والحكمة والسياسة والحكومة التي تتبجح به أوروبا مظاهر جوفاء ، ليست وراءها حقيقة ، إن قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية ، إن البطالة والعري وشرب الخمر والفقر ، هي فتوح المدنية الإفرنجية ، إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي والتنزيل الإلهي ، غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار ، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات ، وتسيطر فيها الصناعة ، تموت فيها القلوب ، ويقتل فيها الحنان والوفاء ، والمعاني الإنسانية الكريمة».

وقد كان انتقاده واستعراضه للحضارة الغربية ، وأسسها ومناهج تفكيرها في محاضراته العلمية التي ألقاها في «مدراس» ونشرت بعنوان: «تجديد الفكر الديني في الإسلام» أعمق و أكثر تركيزاً بطبيعة الحال ، لأن جو البحوث الفلسفية غير جو الشعر والأدب ، فقال وهو يتحدث عن طبيعة الحضارة المادية في الغرب ، والإنسان المعاصر الذي يمثلها ويتزعمها وعن الأزمة والمشكلات التي يعانيها:

«الرجل العصري بما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمي

يجد نفسه في ورطة ، فمذهبه الطبيعي قد جعل له سلطاناً على قوى الطبيعة لم يسبق إليه ، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو» .

«الإنسان العصري وقد أعشاه نشاطه العقلي ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أي إلى حياة روحية تتغلغل في أعماق النفس ، وهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه ، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره ، وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حباً طاغياً ، يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئاً فشيئاً ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق في «الواقع» أي في مصدر الحس الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد ، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية ، هو ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه ، والذي أدركه هكسلي (Huxley) وأعلن سخطه عليه» .

«والاشتراكية الملحدة الحديثة ـ ولها كل ما للدين الجديد من حمية وحرارة ـ لها نظرة أوسع أفقاً ، لكنها قد استمدت أساسها الفلسفي من المتطرفين من أصحاب مذهب هيجل (Hegel) وقد أعلنت العصيان على ذات المصدر الذي كان يمكن أن يمدها بالقوة والهدف ، وهي إذاً ليست بقادرة على أن تشفي علل الإنسانية» .

ومحمد إقبال يصف هذا المجتمع ـ الأوروبي ـ بمجتمع يحركه تنافس وحشي ، وهذه الحضارة بحضارة فقدت وحدتها الروحية بما

انطوت عليه من صراع بين القيم الدينية والقيم السياسية.

وينظر محمد إقبال ـ ككل مطلع خبير ـ إلى الرأسمالية والشيوعية كفرعين من دوحة المادية، وأسرتين للحضارة الغربية، إحداهما شرقية، والأخرى غربية، تلتقيان على النسب المادي، والتفكير المادي، والنظر المحدود إلى الإنسان، ويقول بلسان جمال الدين الأفغاني ـ في رحلة فكرية تخيلها واجتمع به فيها ـ:

«إن الغربيين فقدوا القيم الروحية، والحقائق الغيبية، وذهبوا يبحثون عن الروح في «المعدة»، إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا «بالمعدة والبطن» وديانة «ماركس» مؤسسة على مساواة البطون، إن الأخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون، إنما تقوم على محبة القلوب، وألفة النفوس».

«إن الملوكية والشيوعية تلتقيان على الشره والنهامة، والقلق والسآمة والجهل بالله والخداع للإنسانية، الحياة عند الشيوعية «خروج»، وعند الملوكية «خراج»، والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة زجاج، إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء، وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة، جسمهما قوي ناضر، وقلبهما مظلم فاجر».

الحضـارة الغربيـة والأقطـار الإسـلاميـة:

ويعتقد محمد إقبال أن هذه الحضارة غير قادرة على إسعاد البلاد الإسلامية ، وإعادة الحياة إليها ، يقول:

«إن الحضارة التي قد أشرفت على الموت لا تستطيع أن تحيي غيرها ، وقد جزت من إحسان هذه البلاد الشرقية إساءة من جانبها ، وكافأت خيرها بشر ، فقد منحها الشام نبياً ، رسالته العفة والمؤاساة والرحمة ، ومقابلة الشر بالخير ، والظلم بالعفو ، وقد منحته أوربا ـ بدورها ومقابل كل ذلك ـ الخمر والقمار ، والفجور وهجوم المومسات».

نقــده لدعــاة التجديـد فــي الشــرق:

إنه يسيء الظن بدعاة التجديد ـ وبالأصح التغريب ـ في الأقطار الإسلامية ، ويخشى أن تكون الدعوة إلى التجديد حيلة وستاراً لتقليد الإفرنج ، يقول:

«إنني يائس من زعماء التجديد في الشرق ، فقد حضروا في نادي الشرق بأكواب فارغة ، وبضاعة مزجاة في العلم والفكر.

إن البحث عن «برق جديد» ، في هذا السحاب عبث وإضاعة وقت ، فقد تجرد هذا السحاب الجهام عن البرق القديم ، فضلاً عن البرق الجديد».

إنه يعارض التقليد الأعمى في أمة من الأمم ، ولا سيما الأمة

التي خلقت لقيادة الأمم وإحداث الثورة في العالم ، ويقول :

«إن الذي يأتي بالجديد في هذا العالم الذي يتجدد دائماً ، هو نقطة الدائرة التي يطوف حولها الزمان ، لا تعطل شخصيتك ـ أيها المسلم ـ بالتقليد الأعمى ، واحتفظ بكرامتك فإنها الجوهر الفرد ، إن التجديد (بمعنى التغريب) لا يليق إلا بأمة لا تفكر إلا في الدعة والترف ، إنني أخاف أن تكون الدعوة إلى التجديد إنما هي حيلة وانتهاز لفرصة تقليد الغرب» .

إنه يعاتب الأمم الشرقية الإسلامية التي كان دورها دور التوجيه والقيادة، وأصبحت تمثل دور التلمذة الخاشعة والتقليد الذليل ، يقول ـ وكأنه يشير إلى الشعب التركي المسلم ومن كان على شاكلته ـ :

«إن أولئك الذين كانوا يستطيعون أن يقودوا عصرهم ، أصبحوا بسخافتهم يقلدونه ، ويمشون وراءه» .

وفي «جاويد نامه» يحكي محمد إقبال انتقاد الأمير سعد حليم باشا للثورة التي قام بها أتاتورك في تركيا ، ويذكر سطحيتها وتفاهتها ، وأن زعيمها وقائدها محروم من كل إبداع وابتكار ، ومن كل أصالة في التصميم والتخطيط ، وأنه ليس إلا مقلداً أعمى لأوربا ، يقول :

«إن كمال الذي تغنى بالتجديد في حياة تركيا، ودعا إلى محو كل أثر قديم وتراث قديم ، ولكنه جهل أن الكعبة لا تجدد ولا تعود إلى الحياة والنشاط ، إذا جلبت لها من أوربا أصنام جديدة ، إن زعيم تركيا لا يملك اليوم أغنية جديدة ، إنما هي كلها أغان مرددة معادة تتغنى بها أوربا من زمان ، إن الجديد عنده هو القديم الأوربي الذي أكل عليه الدهر وشرب ، ليس في صدره نفس جديد ، وليس في ضميره عالم حديث ، فاضطر إلى أن يتجاوب مع العالم الأوربي المعاصر ، إنه لم يستطع أن يقاوم وهج العالم الحديث فذاب مثل الشمعة وفقد شخصيته»[١] .

التعليم الغربي وتأثيره:

قد اكتوى محمد إقبال بنار نظام التعليم الغربي شخصياً ، وخاض في دراسته ، فأبدى حقيقته في أسلوب جاد عميق ، مؤسس على التجارب الشخصية ، يقول :

«إياك وأن تكون آمناً من العلم الذي تدرسه ، فإنه يستطيع أن يقتل روح أمة بأسرها» .

إنه يعبر عن ذلك الانقلاب الهائل والتحويل الجذري الذي

---

(١) ملتقط من كتاب المؤلف «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص٩٧ ، فصل «محمد إقبال ونقده للحضارة الغربية» .

يحدثه نظام المعارف الحديث بقوله :

«إن التعليم هو «الحامض» الذي يذهب شخصية الكائن الحي ، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا «الحامض» هو أشد قوة وتأثيراً من أي مادة كيمائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلاً شامخاً إلى كومة تراب» .

إنه يرى نظام التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق ، كما يقول :

«إن نظام التعليم الغربي ، إنما هو مؤامرة على الدين والخلق والمروءة» .

إن إقبال من أولئك الرجال المعدودين الذين خاضوا بحر نظام التعليم الغربي ، فلم يخرجوا من قعره سالمين فقط ، بل وقد جاؤوا معهم بدرر كثيرة ، وازدادوا إيماناً بخلود الإسلام ومضمراته الواسعة ، وازدادوا ثقة بأنفسهم ، ولو كان من الصعب أن يحكم على إقبال أنه لم يخضع للتعليم الغربي والفلسفة الغربية في قليل أو كثير ، وأن فهمه للدين يطابق الكتاب والسنة وفهم السلف تماماً ، ولكن الذي لا مرية فيه أنه لم ينصهر في بوتقة الغرب ، كما انصهر آلاف من معاصريه ، وحق له أن ينشد في هذه المناسبة شعره الذي معناه :

«كسرت طلسم العصر الحاضر وأبطلت مكره ، التقطت الحبة

وأفلت من شبكة الصياد ، يشهد الله أني كنت في ذلك مقلداً لإبراهيم ، فقد خضت في هذه النار واثقاً بنفسي ، وخرجت منها سليماً محتفظاً بشخصيتي»[١].

* * *

(١) ملتقط من كتاب المؤلف «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية» ص ١٨٥ .

الإنسان الكامل في نظر محمّد إقبال [1]

بحث عن إنسان:

قال مولانا جلال الدين الرومي في بعض مقطوعاته: «رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة، وقد حمل مشعلاً، كأنه يبحث عن شيء، قلت له: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟، قال: قد مللت معاشرة السباع والدواب، وضقت بها ذرعاً، وخرجت أبحث عن إنسان في هذا العالم، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي، فخرجت أبحث عن عملاق من الرجال وبطل من الأبطال، يملأ عيني برجولته وشخصيته ويروح نفسي، قلت له: لقد غرتك نفسك يا هذا! فخرجت تقتنص العنقاء، بالله! لا تتعب نفسك، وارجع أدراجك، فقد أجهدت

---

(١) مقال أعد لجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة حالياً) وقدمه صاحب المقال في ٥/رجب سنة ١٣٧٠ هـ (١٠ أبريل ١٩٥١ م) في احتفال كبير أمام شباب الجامعة وجماعة من الأساتذه. ولم يتسع الوقت والجو للاستماع إليه كاملاً لبرامج أخرى، وتمثيلية كانت تعرض من فرقة باكستانية.

نفسي ، وأنضيت ركابي ، ونقبت في البلاد ، فلم أر لهذا الكائن عيناً ولا أثراً ، قال الشيخ : إليك عني ، أيها الرجل! فأحب شيء إلى نفسي ، أعزه وجوداً ، وأبعده منالاً» .

بهذه المقطوعة الشعرية افتتح الدكتور محمد إقبال كتابه الخالد «أسرار خودي» ، ولا أظن أن محمد إقبال اختار هذه المقطوعة ، وحلى بها صدر كتابه إلا لأنها تصور نفسيته ، وتعبر عن شعوره ، فقد كان بحكم دراسته الفلسفية من كبار الرواد الباحثين عن «الإنسان الكامل» فهل وجد محمد إقبال ضالته ، يا ترى؟ وظفر بمطلوبه أم قطع منه الرجاء؟ .

وإذا كان الجواب : نعم ، لقد وجد محمد إقبال ضالته من الناس، وظفر بوطره من الرجال ، فتأكدوا أنه فتح أعظم من فتح «كولمبس» ، واكتشاف أجل خطراً وأعظم قدراً من اكتشاف العالم الجديد ، لأنه اكتشاف الإنسان المفقود ، وعثور على الإنسانية الضائعة ، ولا خير في العالم ـ قديمه وجديده ـ إذا فقد الإنسان وضاعت الإنسانية ، وحاجة العالم إلى إنسان أشد اليوم من حاجته إلى القارات الجديدة والبحار المجهولة .

المسلم هو الإنسان الكامل:

إن محمد إقبال يحدثنا في شعره بأنه وجد هذا الإنسان المنشود ، وعرفه واتصل به ، ونراه قد هام به هياماً ، وتغنى في

شعره بإنسانيته وشخصيته ، فأين وجده محمد إقبال ، وكيف السبيل إلى هذا الإنسان الرفيع؟ .

أخاف أن أفاجئكم بما لا تقدرونه ولا تنتظرونه إذا أخبرتكم أن الإنسان الكامل الذي وجده محمد إقبال ، فوجد فيه ما كان ينشده ، من معاني الإنسانية والقوة والحياة والجمال والكمال ، هو «المسلم» لا أقل ولا أكثر.

إن هذا الجواب مفاجأة للذين يحملون للمسلم صورة قاتمة هزيلة لا تتفق أدباً مع هذا التصوير الرائع ، الذي قدمه الشاعر للإنسان الكامل ، ولكن محمد إقبال بالعكس من ذلك يرى في المسلم الضالة المنشودة والصورة الكاملة للإنسانية.

المسلم المثالي:

ولكنه يعني ذلك المسلم المثالي ، الذي يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقياته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع ، بتجرده من الشهوات، وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة ، وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ، ذلك المسلم الحق الذي مهما اختلفت الأوضاع وتطورات الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التي لا تتغير

ولا تتحول ، وأما ما عداه فزبد يذهب جفاء ، ذلك المسلم هو كالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، أما ما عداه فشجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، يقول في بيت: «إنك أيها المسلم في العالم وحدك، وما عداك سراب خادع ودرهم زائف» ، ويقول في بيت آخر: «إن إيمان المسلم هو نقطة دائرة الحق ، وكل ما عداه في هذا العالم المادي وهم وطلسم ومجاز».

المسلـم لـه وجـودان:

إن المسلم له وجودان: الوجود الإنساني ، والوجود الإيماني ، أما الوجود الإنساني: فهو الوجود الذي يشاركه فيه كل إنسان ، يولد كعامة الناس وينشأ ويكبر كعامة الناس ، ويجوع ويظمأ ، ويشعر بالبرد والحر ، ويأكل ويشرب ، ويصح ويمرض ، ويموت ويحيا ، ويفتقر ويغنى ، ويزرع ويتجر ، ويعول العيال ويربي الأطفال ، ويقتني الأموال ويحكم البلاد والرجال ، فهو في هذا الوجود خاضع للسنن الطبيعية ، تجري عليه كما تجري على غيره ، وتنفذ فيه كما تنفذ في أي إنسان آخر ، وتقسو عليه كما تقسو على غيره ، ولا تتسامح معه لأنه يحمل اسماً خاصاً ، وينتمي إلى جنس خاص ، يلبس لباساً خاصاً ، وهو ذرة حقيرة في صحراء الوجود المترامية ، وموجة عادية تأتي وتذهب في بحر الكون الزاخر ، من غير أن يشعر بها أحد ، فإذا اقتصر المسلم على هذا الوجود البشري العام ، وعاش كإنسان لا أقل ولا أكثر ، كان كائناً ضعيفاً فانياً

ليست له قيمة كبيرة في نظر صيرفي الوجود ، إذا مات في وقته ما بكت عليه السماء والأرض ، وما خسر فيه العالم شيئاً كبيراً.

أما الوجود الإيماني فهو أنه يحمل رسالة خاصة ، رسالة الأنبياء والمرسلين، ويؤمن بمبادىء خاصة، ويعتقد اعتقاداً خاصاً ، ويعيش لغاية خاصة ، فهو من هذه الناحية سر من أسرار الحق ، ودعامة من دعائم العالم ، وحاجة من حاجات البشر ، يستحق أن يعيش ، ويستحق أن ينتصر ، ويستحق أن يزدهر ، بل يجب أن يعيش، ويجب أن يزدهر ، ويدوم مع البشرية ومع هذا الكون ، فحاجة البشرية وحاجة الكون إليه ليست أقل من حاجتهما إلى الماء والهواء والنور والحرارة ، فإذا كانت أشكال الحياة مرتبطة بالماء والهواء والنور والحرارة ، كانت معاني الحياة وحقائقها مرتبطة بالغايات والأرواح والإيمان والأخلاق ، التي تتكفل رسالات الأنبياء بشرحها وبيانها ، ويتكفل المسلم بإعلانها ، والقيام بها، والجهاد في سبيلها ، فلولا هو لضاعت هذه الغايات والرسالات وأصبحت سراً مكتوماً ، إذاً فمركزه في العالم ، وبقاؤه كبقاء الشمس والكواكب النيرة ، تنقرض الأجيال والأمم ، وتحول الأنهار مجراها ، وتخرب عمائر وتعمر خرائب ، وتقوم حكومات وتتقلص حكومات، وتأتي مدنيات، وهو قائم لا يزول ولا يحول.

المسلـم حـي خالـد:

يعتقد محمد إقبال أن المسلم حي خالد ، لأنه يحمل رسالة

خالدة، ويحتضن أمانة خالدة ، ويعيش لغاية خالدة ، يقول في بيت: «لا يمكن أن ينقرض المسلم من العالم ، لأن وجوده رمز لرسالات الأنبياء ، وإن أذانه إعلان للحقيقة التي جاء بها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ» ، ويقول في بيت آخر: «المسلم رسالة الله الأخيرة فلا يعتريها النسخ والتبديل» ، ولا يعني محمد إقبال أن كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية حي خالد ، يفلت من الموت ، ويتمرد على القانون الطبيعي ، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ وقال: ﴿ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ ، ولكن محمد إقبال يرى أن المسلم موج من أمواج بحر الإسلام الخضم ، يأتي موج ويذهب موج ، وتترامى في أحضان البحر وتتلاشى في وجوده ، والبحر لا يتغير ، فالبحر امتداد دائم وتسلسل قائم لأجزاء متغيرة ، كبحر الحياة وبحر الوجود ، تتبدل أمواجه ـ وهي أفراد البشر ـ ولا يتبدل كيانه.

خلـق العالـم للمسلـم:

ويتقدم محمد إقبـال خطوة أخرى ، فيعتقد أن المسلم هو غاية هـذا الكـون ، خلق العالم له وخلق هو لله ، لقد كان العلماء يتباحثون في صحة حديث: «لولاك لما خلقت الأفلاك» ، ولكن محمد إقبال لا تهمه صحة هذا الحديث لفظاً ورواية ، إنه يفهم من القرآن ، ومن دراسة الإسلام وطبيعة المسلم ، ورسالته السامية ، ويفهم من دراسة التاريخ الإنساني الواسعة العميقة ، والاطلاع

الواسع على أوضاع العالم وطبائع الأشياء ، أن المسلم الذي هو جارحة لرسول الله ﷺ وخادمه ، هو مصداق معنى الحديث ، فضلاً عن الرسول عليه الصلاة والتسليم ، فهو خليفة الله في أرضه ، خلق لأجله العالم ، وعلمه الأسماء ، وحكمه في الأرض ، وأورثه خيراتها وخزائنها ، وألقى إليه بمقاليدها ، فيجب عليه أن يعتقد ويقتنع بأن العالم خلق له ، ويجاهد ويجتهد لتطبيق هذه العقيدة ، وتحقيق هذه الفكرة ، يقول في بيت: «إن العالم تراث للمؤمن المجاهد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا أعد مؤمناً كاملاً من لا يعتقد أن العالم خلق له».

مقام المسلم مقام الإمامة والتوجيه:

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، وليساير الركب البشري حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ، ويملي عليه إرادته ، لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم واليقين ، ولأنه المسؤول عن هذا العالم وسيره واتجاهاته ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الآمر والناهي ، إذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ، ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضي الله في أمره ، يقول في بيت:

«يقول من لا خلاق له: در مع الدهر حيث دار ، وإذا لم يسالمك الزمان فسالمه ، وأنا أقول: إذا لم يسالمك الزمان فصارعه وحاربه ، حتى يفيء إلى أمر الله» ، ويرى أن المؤمن غير مأذون بمجازاة الأوضاع ، بل هو مكلف بمصادمة الأوضاع الفاسدة ، يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفة الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد ، وإن كلفه ذلك عملية الهدم والنقص ، والعملية الجراحية فإن كل ذلك في سبيل البناء والعمارة والإصلاح ، يقول في بيت: «على المسلم أن يربي في نفسه الروح ، وينشىء في هيكله الحياة ، ثم يحرق هذا العالم الفاسد بحرارة إيمانه ووهج حياته ، وينشىء عالماً جديداً» يقول متمثلاً: «سألني ربي: هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك؟ قلت: لا يا ربي! قال: فحطمه ولا تبال».

ويرى محمد إقبال أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاصرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء والأقزام ، يقول في بيت: «المسلم الضعيف يعتذر دائماً بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذي لا يرد» ، ويقول: «إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه ، لم يقع في العالم إلا ما يرضاه ويحبه».

المسلم رائد الانقلاب ورسول الحياة:

ويرى محمد إقبال أن المسلم هو مصدر الانقلاب الصالح في

التاريخ ومطلع فجر السعادة في العالم ، وأنه لم يزل ولا يزال رائد الانقلاب ورسول الحياة ، ومؤذن الفجر في الليل البهيم ، وإن أذانه لا يزال صيحة تدوي في هدوء الليل وسكون الموت ، فيعيد إلى هذا العالم النائم الناعس المتعب حياته ونشاطه ، ويؤذن بطلوع الصبح الصادق ، وانصرام الليل الغاسق ، وعلى هذا الأذان الصارخ والنداء العالي الذي ارتفع من جبل «أبو قبيس» قبل ثلاثة عشر قرناً ، استيقظ هذا الكون بعد السبات العميق ، الذي غط فيه خمسة قرون وأكثر ، وكان نفخة للإنسانية الميتة والعالم المحتضر ، وهو الكفيل الآن لإيقاظ الإنسانية ، وإحياء الضمير البشري ، يقول في بيت: «إن المؤمن إذا نادى الآفاق بأذانه ، أشرق العالم واستيقظ الكون» ، ويقول في قصيدة: «لست أعلم بالتأكيد مصدر هذا الصبح الذي يطلع على هذا العالم كل يوم ، ولست أعلم سره ، ولكني أعلم أن السحر الذي يهتز له هذا العالم المظلم، ويولي به ليل الإنسانية الحالك ، إنما ينشأ بأذان المؤمن الصادق».

قوة المؤمن مستمدة من رسالته:

ويعتقد محمد إقبال بحق أن قوة المؤمن الخارقة للعادة ، المحيرة للعقول ، المعجزة للبشر ، مستمدة من رسالته وإيمانه ، وباندماجه واضمحلاله في إرادة الله ، هنالك يتحول جارحة للقدرة الإلٰهية ، وقوة قاهرة لا تصدها الجبال ، ولا تقف في سبيلها البحار ، يقول في قصيدة أنشأها في قرطبة: «إن يد المؤمن جارحة

القدرة الإلٰهية ، فهي غلابة ، حلالة للعقد والمشكلات ، فتاحة للأبواب المقفلة ، لبقة صناع حاذقة ، إن المؤمن جسمه من تراب وفطرته من نور ، عبد متخلق بأخلاق مولاه ، قلبه غني عن العالمين» ، ويقول على لسان القائد الإسلامي الكبير طارق بن زياد فاتح الأندلس ، وهو يدعو لأصحابه العرب بالنصر ويناجي ربه ، يقول: «إن الغزاة المجاهدين عبيدك الغامضون ، الذين لا يعرفهم غيرك ، وقد أصبحوا اليوم يطمحون إلى فتح العالم وإخضاعه ، إذا ركلوا برجلهم الصحراء انشقت ، وإذا ركلوا برجلهم البحر انفلق ، انكمشت الجبال وتقبضت بمهابتهم ، إنهم عرفوك وأحبوك ، فزهدوا في العالم ، واستغنوا عن الدنيا ، لا يطلبون إلا الشهادة في سبيلك ، ولا يهدفون بجهادهم إلى الفتح والغنائم ، لقد أفردت رعاة الإبل بنعمتك ، وميزتهم بين أقرانهم في الخبر والنظر ، وأذان السحر ، لم يزل العالم يعوزه لوعة القلب ، والتوجه للإنسانية المظلومة ، وفي قلوب هؤلاء الجريحة وفي أكبادهم المتقدة وجد العالم مآربه» ، بل إن الشاعر يتقدم خطوة ويقول: «ما ظنك بقوة ساعد المؤمن! وهو بنظرته يقلب الأوضاع ، وبدعوته يرد القضاء»، والمطلع على التاريخ يصدق ما قاله محمد إقبال ، فقد هزىء المسلمون المؤمنون في عصرهم الأول من الجبال والبحار ، وشقوا طريقهم غير محتفلين بما تعترضهم من أشواك وعقبات ، قصص سعد بن أبي وقاص، وخالد بن الوليد، والمثنى بن حارثة الشيباني،

وعقبة بن نافع ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد ، شاهدة على صدق ما قاله محمد إقبال .

المسلم لا ينحصر في الأوطان والشعوب:

ويرى محمد إقبال أن المسلم حقيقة عالمية لا تنحصر بين حدود الجنسية والوطنية الضيقة ، بل تتخطى حدود المكان والزمان ، وتفيض كالطبيعة البشرية ، وكالإنسانية العامة ، في مساحة زمانية شاسعة ، كمساحة التاريخ الإسلامي ، وفي مساحة مكانية واسعة كمساحة العالم الإسلامي ، يقول في قصيدة قرطبة: «إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود، ولا يعرف أفقه الثغور ، ليست دجلة والنيل ودانوب إلا أمواجاً صغيرة في بحره المتلاطم ، عصوره عجيبة وأخباره غريبة ، نسخ العهد العتيق وغير مجرى التاريخ ، هو في كل عصر ساقي أهل الذوق ، وفي كل مكان فارس ميدان الشوق ، شرابه رحيق دائماً ، وسيفه ماض في كل معركة» ، ويعتقد محمد إقبال أن العالم كله وطن للمسلم ، يقول في بيت: «المسلم الرباني ليس بشرقي ولا غربي ، ليس وطني دهلي ولا أصفهان ولا سمرقند ، إنما وطني العالم كله» ، ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يعتبر كل ملك الله وطناً له ، يقول: «لما نزل طارق بالجزيرة الخضراء أمر بالسفن فأحرقت، فجاءه رجال من الجيش ولاموه على فعله ، وقالوا له: «لقد قطعت بنا الحبال ، فكيف نرجع إلى بلادنا؟ فوضع طارق يده على السيف، وقال: أنا لا أفكر في الرجوع،

وسنبقى هنا ، ونتخذه وطناً ، فإن كل ما كان لله من أرض وبلاد ، وطن لنا ، لا فرق في ذلك بين العجم والعرب ، والشرق والغرب».

المسلـم متخلـق بأخـلاق الله:

ويعتقد محمد إقبال أن المسلم يجمع بين المتناقضات من الأخلاق والصفات ، وما هي بمتناقضات ، ولكنها ظلال صفات الله ، ومظاهر أخلاق الله ، فهو في تسامحه ، ورحابة صدره ، وكثرة صفحه ، قد تخلق بخلق «الغفار» ، وفي شدته في الدين ، وغضبه للحق ، وثورته على الباطل ، قد تخلق بخلق «القهار» ، وهو في نزاهته ، وعفته ، وطهارة ضميره ، قد تخلق بخلق «القدوس» ، وفي صلابته إذا تصلب وشدة شكيمته إذا أبى ، وشدة بطشه إذا حارب ، تخلق بخلق «الجبار» ، ولا يكون المثل الكامل لدينه ، وصورة صادقة للإسلام ، حتى يجمع بين هذه الأخلاق المتنوعة ، فيجمع بين الشدة واللين ، والغضب والرحمة ، والصلابة والمرونة ، والعفة والنزاهة ، ويكون في ذلك آية من آيات الله ومعجزة من معجزات الرسول ، ثم يقول الشاعر: «إن المؤمن هو الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم ، به يعلم رضا الله وسخطه ، وبه يعرف الحسن من القبيح ، فما راق في نظره فهو حسن ، وما استقبحه فهو طائش ، وفي عزائمه تتجلى إرادات الله ، وهو القرآن الناطق ، وهو الدين يسعى على قدميه ، ثم إن حياته متوافقة متشابهة كالطبيعة ، فالصبح يطلع كل يوم ، والليل يتبع

النهار، لا تخلف فيه ولا تناقض، وهو صاحب معان كثيرة ، ونغمة واحدة ، فهو كسورة الرحمن في القرآن ، تتجدد معانيه وتتكرر فيه آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ، وقد صدق الشاعر ، فالمسلم لم يزل يتحف كل عصر بعلومه وتوجيهاته ، وينير ظلمات كل عصر بنوره وضيائه ، ويضرب على وتر واحد ، ويكرر رسالة الأنبياء ، ويقول لكل جيل: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ، فهو كالصبح جديد وقديم ، فهو في جدته ليس أجد منه ، وهو في قدمه ليس أقدم منه، هو قديم لكنه يتجدد به العالم وتتجدد به الكائنات، وتنتعش به القوى ، وتستيقظ به الأجسام والقلوب والعقول ، ثم هو جديد بنفسه ، تتجدد قواه ويتجدد نشاطه ، وتتفتح قريحته مع العصور، علمه سيار وعقله مبتكر، ونفسه طموح وهمته وثابة، وهو كالمطر كل قطرة غير الأولى، ولكنها قطرات مطر، كلها تحيي الأرض ، وكلها تنبت النبات ، وكلها تسقي المزارع والأشجار ، وكلها تفتح الأزهار، وكلها تكون الأنهار، وهو معنى قول النبي ﷺ: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره».

المسلم كالشمس لا تغرب مطلقاً:

ويقول محمد إقبال: «إن المسلم كالشمس إذا غربت في جهة طلعت في جهة أخرى ، فلا تزال طالعة» ، وقد صدق ، فإن الإسلام لم ينكب في ناحية من نواحي العالم ، ولم يخسر في جانب دولة إلا وقامت له دولة في جانب آخر ، ولم تسقط له راية إلا

وخفقت له راية آخرى ، ولم يغب له نجم إلا وطلع له نجم آخر ، لقد كانت خسارة الأندلس كارثة كبيرة ، ومصاباً عظيماً ، ولكن عوض الإسلام بها بدولة فتية من أعظم دول العالم ، هي دولة آل عثمان في تركيا ، قامت في نفس القارة الأوربية ، وجثمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية وأجلت المسلمين من وطنهم العربي الإسلامي ، وكان سقوط غرناطة وأوج الدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني حادثين في عصر واحد ، ونكب العالم الإسلامي ، ونكبت بغداد بغارة التتار ، وانطمست معالم الحضارة الإسلامية ، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً ، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتسع وتزدهر ، وأصيب العالم الإسلامي بهزات عنيفة وقواصم مؤلمة في فجر هذا القرن المسيحي على أيدي الأوربيين ، فقد اقتسمت الدول الأوربية تراث الدولة العثمانية كمال سائب ، واغتصبت مملكتها في إفريقية ، وتقاسم الحلفاء سورية وفلسطين والعراق ، ولكن تبع هذا كله اليقظة الإسلامية الهائلة ، والوعي السياسي القويم ، والطموح إلى الاستقلال والحرية والحركات الإسلامية المختلفة التي كان يجيش بها العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

ونكب المسلمون في العهد الأخير بنكبات عظيمة في الشرق الأقصى والأوسط ، وخسرت الدول العربية فلسطين العربية الإسلامية ، ولكن في نفس هذه الفترة قامت للمسلمين دولتان

فتيتان في الشرق ، إحداهما دولة باكستان والأخرى أندونيسيا .

وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامي متأرجحاً بين الأسفل والأعلى ، فما تسفل منه جانب إلا وترفع جانب آخر ، كالأرجوحة تماماً ، ولم تتوار شمسه في أفقه إلا وبزغت في أفق آخر ، وذلك لأن الإسلام رسالة الله الأخيرة التي لا رسالة بعدها والمسلمون هم الأمة الأخيرة التي لا أمة بعدهم ، فإذا ضاعوا فقد ضاعت الرسالة ، وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة .

* * *

مكان «المسلم» في الوجود [1]

قال المؤلف في ترجمة الإمام جلال الدين الرومي في كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»:

«لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة، والفلسفات الخاطئة، والأديان المحرفة، على الاستهانة بقيمة الإنسان، والحط من قدره وشرفه، وقد نشأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ـ مقت شديد في الناس للحياة، وتبرم من امتدادها واستمرارها، وقنوط من المستقبل، وشعور عميق بالمهانة، أو ما يسمى اليوم «بمركب النقص» وأصبح الإنسان حقيراً في عينه.

وجاء بعض «المتصوفين» العجم فدعوا دعوة متحمسة إلى «الفناء» الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي: «موتوا قبل أن تموتوا»، وغلوا في إنكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحب الذات الذي يتوقف عليه الكفاح، والحركة والنشاط جريمة خلقية، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي، وقد أسرف الدعاة

---

(١) مقال أضيف إلى الطبعة الثانية من الكتاب.

والمؤلفون في الحث على اكتساب الصفات الملكية ، والانسلاخ من اللوازم البشرية ، حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته، وأصبح يعتقد أن رقيه في الثورة على الإنسانية ، لا في الاحتفاظ بإنسانيته ، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية ، وأشبه بالملائكة كان أقرب إلى السعادة والكمال.

ونشأ ـ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات ، وانحلال المجتمع ، وجور الحكومات ـ أدب متشائم ، وشعر متشائم ، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود ، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس ، والنقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم ، كما فعل «أبو العلاء المعري» في عصره.

وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامة الثقة بنفوسهم ، والأمل في مستقبلهم ، والرغبة في حياتهم ، وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال ، منكسر الخاطر ، ضعيف الإرادة ، محطم الأعصاب ، قد يحسد الحيوانات في حريتها ، والجمادات في سلامتها وهدوئها ، لا يعرف لنفسه قيمة ، ولا لإنسانيته شرفاً ، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيأه الله لطيرانه وتحليقه ، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة ، والقوى الجبارة ، والمواهب العظيمة ، التي أودعها الله في باطنه ، ولا يعرف أنه قد خلق ليكون «خليفة رب العالمين» في هذا العالم الفسيح و«وصياً عليه».

وأخضع له هذا الكون ، وما كان سجود الملائكة لأول البشر إلا إشارة لهذا الخضوع ، فإنهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله ، ويبلغون رسالاته فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى .

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية ، الذي كفر بالإنسان وقيمته ومركزه في هذا العالم ، قام مولانا «جلال الدين الرومي» يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرنان ، ويثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم ، والشعر المتراجع المنهزم ، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة ، حتى دب في المجتمع دبيب الحياة وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته ، وترنح بهذا الرجز والحداء القوي «الأدب الإسلامي» كله ، وردده الشعراء وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى «الاعتزاز بالإنسانية» [١] .

وجاء دور الفلسفة الغربية ، وسيادة أوروبا الثقافية والسياسية ، قد ورثت عن كنيستها النصرانية وتفكيرها المسيحي الفكرة الرهبانية ، وعقيدة الكفارة والفداء المؤسسة على كون الإنسان مذنباً بالفطرة والوراثة ، واحتياجه إلى من يكون كفارة له وفداء ، هذا بجنب المادية الرعناء التي تصورت الإنسانية في آلة الإنتاج ، وماكينة مسخرة ، وحيوان راق منتج لا يعرف إلا إشباع الغريزة ،

---

(١) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ٢٩٤ ـ ٢٩٦ «الطبعة الأولى» .

وإرضاء النهامة ، وإنتاج الرائج النافع للسوق ، وتجاهلت جميع الدوافع الخيرة المخلصة ، والقيم الروحية ، والآفاق الباطنية، وجعله مخلوقاً تافهاً خاضعاً للنواميس الطبيعية العمياء.

وقد كان للمسلم الشرقي أكبرنصيب في هذا اليأس والتشاؤم ، وفي إنكار الذات ، وفي الجهل بقيمته وكرامته ، فقد فقد السيادة والسيطرة في بلاده ووطنه الإسلامي الكبير ، وخضع للنفوذ الغربي السياسي والاجتماعي، وبهره بريق الحضارة الغربية ، فذاب أمامه كما تذوب الشمعة في وهج الشمس، وفقد الثقة بنفسه ومستقبله ، وبقيمته وغنائه ، وأصبح أضعف نفساً وإرادة ، وأقل ثقة بالنفس من معاصره الأوروبي ، فقد ضعف إيمانه بدينه وشخصيته ، وحرم المجتمع القوي الذي يعيش فيه ، والحضارة الفتية التي يعتز بها ، والحكومات القوية الغنية التي يستند إليها ، فأصبح إنساناً هزيلاً لا قيمة لنفسه في عينه ، ولا أمل له في المستقبل.

وجاءت النظم السياسية، والفلسفات الاقتصادية، والحكومات الشرقية ـ في آسيا وإفريقية ـ وجاء الأدب الحديث، والشعر المعاصر، والصحافة والنقد ، فلم يضرب كل ذلك إلا على الوتر الواحد ، ولم تردد إلا نغمة واحدة ، كلها تتجاهل قيمة الإنسان المؤمن ، وقيمة الفرد المسلم ، وكلها تتناسى رسالته الخالدة ، ومضمراتها ومكنوناتها التي لا نهاية لها ، وقوتها المعجزة المغيرة للأوضاع ، وكلها تجهل مواهبه ، وطاقاته المخبوءة ، وكنوزه وثرواته الدفينة،

وكلها تجهل قوة إيمانه ، التي تصنع العجائب ، وتبطل التجارب ، وقوة مغامرته ، ومدى إخلاصه ، وتجرده من الأغراض ، ونزاهته وقدسه ، وتمرده على المثل والمكائيل المصطنعة ، والحدود والقيود المحدودة ، وشجاعته واستهانته بكل ما ظل الإنسان يخافه ويحذر منه ، ويحسب له الحساب منذ آلاف من السنين ، وكلها تتطفل على مائدة الغرب، وتستجدي منه ما تعيش عليه من مرذول الطعام ، وممجوج الكلام ، والقديم البالي من النظم والأفكار ، والعلوم والآداب ، لا فرق في ذلك بين حكومات فردية شخصية ، وبين حكومات جمهورية اشتراكية ، أو ثورة شيوعية ، كلها تلتقي على فكرة واحدة عن الإنسان ، ونظرة واحدة إلى المسلم ، الذي تستمد منه قوتها ، وتتوصل بنخوته وحماسته إلى كرسي الحكم .

في هذا الجو الفاتر الخائر يقوم محمد إقبال ، ويتغنى بشخصية هذا الإنسان المسلم ، ويثير فيه النخوة والإباء ومعرفة الذات ، والثقة بالنفس ، ويريه مكانته في الوجود ، ومركزه في العالم الإنساني ، وينقله من عالم اليأس والتشاؤم ، واحتقار الذات وجهل النفس ، إلى عالم كله أمل وعمل ، وكله بطولة ومغامرة ، وكله سيادة وسيطرة ، وكله اعتداد واعتزاز ، وكله طرب واهتـزاز ، وكـله تركيز وإيجـاز ، فيقول في قصيدة فارسية لـه :

«عجباً لك أيها المسلم! تجلت لك الآفاق ، وغابت عنك نفسك ، إلى متى تظل غافلاً ، جاهلاً ، وتجلس ضائعاً عاطلاً؟ ،

إن نورك الوهاج أنار العالم القديم ، ونسخ الليل البهيم ، ولا تزال «اليد البيضاء» التي ورثتها عن موسى في كمك ، تَخَطَّ حدود الآفاق الضيقة ، فأنت السابق لها والفائق عليها ، فقد كنت ولم تكن وستكون ولا تكون ، هل تخاف الموت أيها الإنسان الحي الخالد؟ لقد كان جديراً بالموت أن يخافك ، فأنت تكمن له وترصد به ، اعلم يقيناً ، أن الكريم إذا وهب شيئاً لا يسلبه ولا يسترده ، وليس حتف ابن آدم في فراق الروح ، إنما حتفه في ضعف الإيمان ، والحرمان من اليقين» [(١)].

ويقول في قصيدة فارسية أخرى ، تمتاز بحلاوة الجرس وعذوبة الموسيقا ، تصبح بها نشيداً مثيراً للشباب المسلم الطموح ، وهو يهيب بهذا المسلم المتشائم اليائس ، المتثاقل الناعس ، المتخلف عن ركب الحياة ، المنازل عن القيادة والإمامة ، يقول:

«افتح عينيك أيها الزهر النائم مثل النرجس الذي لا يطبق عينه لحظة ، ولا يعرف الكرى إليه سبيلاً ، لقد أغار على وكرنا الأعداء ، ونهبوا كل ما فيه من كنوز وخيرات ، ألا يكفي هدير الحمام ، وصفير الأذان ، وأنين القلوب والأرواح أن يوقظك ، انتبه من هذا السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

لقد بدأت الشمس رحلتها المباركة المتكررة ، وارتفع عمود

---

(١) «زبور عجم»: ١٦٤.

الصباح المنير في بحر الظلمات ، وحزمت القوافل في الجبال والصحارى أمتعتها ، وضربت أجراس الرحيل ، فمالك أيتها العين الساهرة التي خلقت لمراقبة الإنسانية ، وحراسة الضعفاء ، تنامين ولا تنظرين إلى ما يدور حولك من الأحداث والتقلبات ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته.

لقد أصبح بحرك هادئاً ساكناً كالصحراء ، لقد فقد طبيعته وجمد ووقف ، فلا مد فيه ولا جزر ، ولا زيادة فيه ولا نقص ، عجباً لهذا البحر الذي لا يهيج ولا يموج ، وليس فيه تمساح طموح مغامر ، ولا موج عارم ثائر ، لقد كان جديراً بك أن تقفز من حدوده الضيقة الهادئة ، وتفيض على البراري والقفار ، والنجاد والأغوار ، انتبه من سباتك العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

اعلم أن الوطن جسد من تراب ، والدين هو الروح ، ولا حياة للجسد والنفس ، إلا بارتباط الجسد والروح ، انهض أيها المسلم! وفي إحدى يديك «المصحف» وفي الأخرى «السيف» فباجتماعهما تسعد البشرية ، وتخصب المدنية ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

أنت للناموس الأزلي حارس وأمين ، ولسيد هذا الكون يسار ويمين [١] ، لقد كانت نشأتك من التراب ، ولكن بك قوام العالم

---

(١) يعني أنه آلة بيد القدرة الإلهية ، وجارحة لها.

وبقاء الأمم ، اشرب كأساً فائضة من اليقين ، وانهض من حضيض الظن والتخمين ، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته.

الغياث من الإفرنج الذين خلبوا العقول وسحروا النفوس ، الغياث من هؤلاء الذين خدعوا مرة بالرقة والدلال ، ومرة بالقيود والأغلال ، وتارة مثلوا دور «شيرين» وطوراً لعبوا دور «أبرويز» [١] ، لقد أصبح العالم كله خراباً يباباً بإغارتهم وغزوهم.

يا باني الحرم! ويا خليفة إبراهيم! انهض لبناء العالم من جديد، انتبه من السبات العميق الذي طال أمده ، واشتدت وطأته» [٢].

ويقول في قصيدة أردية تكاد تسيل رقة وعذوبة:

«لقد هبت علي نفحة منعشة من نسيم السحر في الصباح الباكر فناجتني ، وقالت لي: إن الذي عرف نفسه وعرف قيمته ومركزه لا يليق به إلا عروش الملوك وأسرة السلاطين ، إنه لا حياة لك ولا قوام ، ولا شرف ولا كرامة إلا بهذه «المعرفة» ، فإذا ملكتها ملكت العالم ، وإذا فقدتها أصبحت من سقط المتاع ، إنه يتربى في

---

(١) يشير إلى قصة غرامية فارسية قديمة تناقلها الأدباء والشعراء في إيران والهند تمثل فيها «شيرين» دور المرأة الفاتنة التي هام بها الأبطال و«أبرويز» دور الملك القاهر الذي عشقها ، واستأثر بها.

(٢) «زبور عجم»: ١١٦ ـ ١١٨ باختصار وتوسع.

مدرسة شعري وأدبي شباب لا يملكون درهماً ولا ديناراً ، ولكنهم يملكون صولة السلاطين ويحسنون آداب الملوك ، إن لك الخيار فاختر ما شئت ، ولكنني بدوري لم يعجبني الفرار من الحياة ، والعكوف في الزوايا والخلوات.

لقد هيأك الله ، أيها الشاب المسلم! لاقتناص «هماً» (١) ، وما هذه الطيور والأسماك التي تملأ العالم إلا لتتمرن عليها في بدء أمرك ، ويتلهىٰ بها غيرك! وما نطقك بالشهادتين أيها المسلم سواء كنت عربياً أو أعجمياً ، إلا حديثاً غريباً ، حتى يشهد بها قلبك (٢) .

ويقول في قصيدة خفيفة الوزن ، قصيرة البحر ، سهلة اللفظ ، كأنها قطعة من نثر ، أو حديث من أحاديث الناس :

«إن كل ما في العالم من الظواهر الكونية ، أو الأجرام الفلكية ، راحل زائل ، وغائب آفل ، أنت ـ أيها الإنسان المسلم ـ بطل المعركة ، وقائد الجيش ، وكل ما حولك من سافل وعال ، ورخيص وغال ، من جنودك وأتباعك ، أسفاً لك ، أيها الرجل! لم تقدر نفسك ، ولم تحسب لها حساباً ، ما أشد جهلك وما أضيق

---

(١) طائر أسطوري في الأدب الفارسي والأردي يضرب به المثل في اليمن والسعادة. ويقال: إنه ما أظل إنساناً ، وما طار فوق رأس إنسان إلا وكان ملكاً في يوم من الأيام.

(٢) «بال جبريل» ٦٧ ـ ٦٨ .

نظرك! إلى متى تجري وراء الدنيا الذليلة ، وتعبدها وتخضع لها؟ إما أن ترفضها رفضاً باتاً، وتزهد فيها وتتبتل ، وإما أن تملك ناصيتها وتسود وتحكم ، لا منزلة بين المنزلتين ولا توسط بين النهايتين» .

وهذا قليل من كثير جداً ، تطفح به كتبه ، ودواوين شعره ، وفي هذا بلاغ للشباب المسلمين الذين خضعوا لنظام التربية الحديثة ، والفلسفات المادية ، التي حجبت عنهم شخصيتهم ، وآفاق عالم الروح والقلب ، وأعماق النفس البشرية ، ومرامي المؤمن القوي الطموح ، ولم تصور العالم إلا سوق تجارة أو مركز إنتاج ، أو حانوت خمر ، أو بيت مقامرة ، أو مكان تنافس للقيادة، وصراع في مجال الاقتصاد والسياسة ، ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ .

* * *

برلمان إبليس

في ديوان محمد إقبال الأخير «أرمغان حجاز» (هدية الحجاز) قصيدة بديعة وصف فيها وصور جلسة برلمانية، حضرها وتناقش فيها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي، واستعرضوا فيها الاتجاهات والحركات والمذاهب السياسية العصرية التي تهدد مهمتهم في العالم وتحبط مساعيهم أو تعرقل سيرهم ، وأبدوا فيها آراءهم ووجهات نظرهم، وترأس هذه الجلسة وأشرف عليها «إبليس» فحكم على هذه الآراء والدراسات، وعارض أكثرها في ضوء تجاربه الواسعة، وبعد نظره الذي لا يشاركه فيه أحد من تلاميذه، وأدلى برأيه الحصيف المؤسس على الدراسة الواسعة العميقة، وهو يتلخص في: أن المسلم هو المنافس الوحيد والمصارع الكفء لنظامه، وهو الشرارة التي تتحول ناراً بسرعة ، فالمصلحة والرأي أن يركز «الزملاء» تفكيرهم على محاربة هذا العدو ، أو إلهائه وتنويمه ، وقد جاء في هذه القصيدة من الوصف الصادق الدقيق للمسلم ، ومن الملاحظات الصائبة الدقيقة عن كثير من المذاهب السياسية وزعمائها، ما يفيد الاطلاع عليه، وإليكم محضر الجلسة :

«إن الشياطين وزملاء إبليس وأعوانه اجتمعوا في مجلس شـورى ، وتبـاحثـوا فـي سيـر العـالـم وأخطـار الغـد وفتنـه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الإبليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن وأخطار قد أحدقت بهم وهددت نظامهم ، وجللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر أحدهم «الجمهورية» وحسب لها حساباً كبيراً ، فقال الثاني : لا يهولنك أمرها ، فإنها ليست إلا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، إذ رأينا الإنسان بدأ ينتبه ويفيق ، ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، ألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الأمير والملك ، إن الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، إنما الملوكية أن يعيش الإنسان عيالاً على غيره ، مستشرفاً إلى متاع غيره ، سواء في ذلك الشعب والفرد ، أما رأيت نظام الغرب الجمهوري ، وجهه مشرق وضاح ، وباطنه أظلم من باطن جنكيز خان .

فقال الآخر : لا بأس إذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي أثارها هذا اليهودي الذي يدعى «كارل ماركس» ذلك الباقعة الذي ليس نبياً ، ولكنه يحمل عند أتباعه كتاباً مقدساً ، هل عندك نبأ أنه أقام العالم وأقعده ، وأثار العبيد على السادة حتى تزعزعت مباني الإمارة والسيادة؟ .

فقال الآخر مخاطباً رئيس المجلس : يا صاحب الفخامة ، إن

سحرة أوربا ، وإن كانوا مريديك المخلصين ، ولكن لم أعد أثق بفراستهم ، ها هو السامري اليهودي الذي هو نسخة من «مزدك» (الزعيم الفارسي الاشتراكي) ، قد كان يأتي على العالم بقواعده ، فاستنسر البغاث ، وأصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ، ويدفعونهم بالراح (أعلام أرض جعلت بطائحاً) إنا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاشتراكية ، وها هي قد استفحلت وتفاقم شرها ، وها هي الأرض ترتجف بهول فتنة الغد ، يا سيدي إن العالم الذي كنت تحكمه سينقض عليك ، وينقلب نظام العالم ظهراً لبطن.

فتكلم رئيس المجلس «إبليس» وقال: إني أملك زمام العالم ، وأتصرف به كيف أشاء ، وسيرى العالم عجباً إذا حرشت بين الأمم فتهارشت الكلاب، وافترس بعضها بعضاً فعل الذئاب ، وإذا همست في آذان القادة السياسيين ، وأساقفة الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم ، وجن جنونهم.

أما ما ذكرتم عن الاشتراكية ، فكونوا على ثقة أن الخرق الذي أحدثته الفطرة بين الإنسان والإنسان لا يرفؤه المنطق المزدكي (يعني الفلسفة الاشتراكية) لا يخوفني هؤلاء الاشتراكيون الطرداء ، والصعاليك السفهاء.

إن كنت خائفاً ، فإني أخاف أمة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، وتسيل دموعهم على خدودهم سحراً ، لا يخفى على

الخبير المتفرس أن الإسلام هو فتنة الغد ، وداهية المستقبل ، ليست الاشتراكية .

أنا لا أجهل أن هذه الأمة قد اتخذت القرآن مهجوراً ، وأنها فتنت بالمال ، وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الأمم ، أنا خبير بأن ليل الشرق داج مكفهر ، وأن علماء الإسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكني أخاف أن قوارع هذا العصر وهزاته ستقض مضجعها ، وتوقظ هذه الأمة ، وتوجهها إلى شريعة محمد ﷺ ، وإني أحذركم وأنذركم من دين محمد ﷺ ، حامي الذمار ، حارس الذمم والأعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الأمانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغي كل نوع من أنواع الرق ، ويمحو كل أثر من آثار استعباد الإنسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطاناً على صعلوك ، يزكي المال من كل دنس ورجس ، ويجعله نقياً صافياً ، ويجعل أصحاب الثروة والملاك مستخلفين في أموالهم، أمناء الله، وكلاء على الأموال، وأي ثورة أعظم ، وأي انقلاب أشد خطراً مما أحدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل، يوم صرخ: إن الأرض لله لا للملوك والسلاطين.

فابذلوا جهدكم أن يظل هذا الدين متوارياً عن أعين الناس ، وليهنكم أن المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه ، قليل الإيمان بدينه ، فخير لنا أن يظل مشتغلاً بمسائل علم الكلام والإلهيات

وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم ، فإنه يستطيع أن يكسر طلاسم العالم ، ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا أن يطول ليله ويبطىء سحره ، اشغلوه يا إخوتي! عن الجد والعمل ، حتى يخسر الرهان في العالم ، خير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ويهجر هذا العالم ويعتزله ، ويتنازل عنه لغيره زهداً فيه واستخفافاً لخطره ، يا ويلتنا! ويا شقوتنا! لو انتبهت هذه الأمة ، التي يعزم عليها دينها أن تراقب العالم وتعسه»[١] .

مؤامـرة أنصـار الباطـل ضـد المسلـم:

وفعلاً نجح شياطين الإنس والجن في مهمتهم ، وكانت مؤامرة مبيتة ضد الإسلام ، وخطة منظمة ضد أجياله القادمة ، فأكبر ما اهتموا به هو إطفاء الجمرة الإيمانية ، التي لا تزال كامنة في الرماد ، وتجريد المسلمين في بلاد العرب والعجم من الحمية الدينية والعاطفة الإسلامية ، التي تحمل أصحابها على التضحية والجهاد ، وتحمل الشدائد والمكاره في سبيل الله ، والثورة على الباطل ، وقد أوصى بذلك إبليس أشياعه وجنده ، يقول محمد إقبال في قصيدة عنوانها (وصية إبليس إلى تلاميذه السياسيين) : «إن المجاهد الذي يصبر على الجوع ولا يحسب للموت حساباً ، أخرجوا روح محمد ﷺ من جسمه ، فيصبح قليل الصبر ، جزوعاً

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٣٠ ـ ٢٣٣ .

من الفقر ، شديد الخوف من الموت ، وأشغلوا العرب بالأفكار الغربية ، وانتزعوا من أهل الحرم تراثهم الديني تتمكنون بذلك من إجلاء الإسلام من الحجاز واليمن ، إن في الأفغان غيرة دينية ، وعلاجها أن يقصى العالم الديني من جبالها وسهولها».

وكان من أقرب الطرق للوصول إلى هذا الهدف هو التعليم الذي يجرد الشباب المسلم من الروح الديني والعواطف الإسلامية والعقلية الإسلامية ، وينشىء فيه طبيعة النفعية والأبيقورية ، وطبيعة التهام الحياة ، وانتهاب المسرات ، وتقديس المادة ورجالها ، وعدم الاستقامة الخلقية والتماسك ، وضعف الثقة بالنفس ، والشك في الدين ، لذلك يرى شاعر هندي آخر اسمه أكبر الإله آبادي : أن فرعون مصر أخطأ الرمية ، وجانبه التوفيق في تحقيق فكرة القضاء على بني إسرائيل ، فقد التجأ في قتلهم وإبادتهم إلى طرق سافرة ألصقت به العار ، وأثارت عليه اللعنات ، فكان يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ليأمن ثورة بني إسرائيل ، وغائلتهم في المستقبل ، ولو أنه رزق شيئاً من الابتكار، وبعد النظر ، ودقة التفكير ، لاكتفى بتأسيس كلية لبني إسرائيل ينشىء الجيل الإسرائيلي الجديد كما يشاء ، ويسبك العقول والطبائع سبكاً جديداً ، لا يدع إمكاناً لنشأة شاب مثقف يشعر الشعور الديني ويحمل العاطفة الدينية ، والغيرة القومية ، ويهتم بشيء آخر غير الوظائف والمناصب والمرتبات والدرجات ، لو أن فرعون وفق

لهذا المشروع لتفادَى هذه المتاعب ، وسوء الأحدوثة ، ووصل إلى غايته في سهولة ويسر ، وهدوء وسلام ، وزيادة على ذلك اشتهر في الناس بلقب «حامي العلم» و«مربي الجيل» وناشر الثقافة والتعليم في الشعب .

نجـاح أنصـار الباطـل فـي إضعـاف الـروح الدينـي:

ويرى محمد إقبال أن أنصار الباطل قد نجحوا نجاحاً كبيراً في فكرتهم وجهودهم ، فضعف الشعور الديني في بلاد الإسلام وخمدت جذوة الإيمان ، وفقدت البطولة الإسلامية وروح الجهاد ، وفشت النفعية وجمحت المادية ، يقول الشاعر ، وقد ساح في كثير من البلاد الإسلامية والعربية : «لقد تجولت في بلاد العرب والعجم ، فرأيت خلفاء أبي لهب كثيرين تفيض بهم البلاد ، والمتشبعين بروح محمد ﷺ كالكبريت الأحمر وعنقاء المغرب» ، ويقول في قصيدة قالها في فلسطين : «لا أرى في بلاد العرب تلك اللوعة القلبية التي كان يمتاز بها العرب ، ولا في بلاد العجم ذلك السمو الفكري الذي كان يمتاز به العجم ، لا تزال دجلة والفرات متعطشين إلى بطل من أبطال الإسلام ، ولكني لا أرى في قافلة الحجاز أحداً يقوم مقام الحسين» .

يشعر محمد إقبال بهذا التدهور الذي وقع في حياة المسلمين ويتألم لذلك أشد الألم ، ويبكي دماً ، وشعره يفيض بهذه الأنات والدموع ، يقول في أبيات : «يا وارث التوحيد الإسلامي لقد فقدت

الكلام الجذاب الساحر ، والعمل المسخر القاهر ، لقد كنت يوماً من الأيام ، إذا نظرت إلى أحد ارتعد فرقاً منك ، وطار قلبه شعاعاً ، وقد أصبحت اليوم كسائر الناس ، لا تحمل روحاً ولا تجذب نفوساً» ، ويقول في موضع آخر : «إن السجدة التي كانت تهتز لها روح الأرض ، لقد طال عهد المحراب بها ، واشتاق إليها المسجد ، كما تشتاق الأرض الجديبة الخاشعة إلى المطر ، لم أسمع في مصر ولا في فلسطين ذلك الأذان الذي ارتعشت له الجبال بالأمس» ، ويقول في بيت : «لقد فقد المسلم لوعة القلب وانطفأت نار الحياة فيه ، فأصبح ركامها من تراب» ، ويقول : «لم أر في محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة ، قد بحثت عنها موجة موجة ، وتفقدتها صدفة صدفة» .

ويرى محمد إقبال أن مصدر هذا التدهور هو القلب الذي خوى من الإيمان وشعلة الحياة ، يقول : «لقد فقد المسلمون سورة الحب الصادق ، ونزف منهم دم الحياة ، أصبحوا هيكلاً من عظام ، لا روح فيـه ولا دم ، الصفـوف زائغـة ، والقلـوب مضطـربـة ، والسجدة لا لذة فيها ، ذلك لأن القلب خال من الحنان» .

اليقظـة الإسلاميـة:

هذا ، ولكن محمد إقبال يعتقد أن الصدمات السياسية التي أصيب بها العالم الإسلامي أقضت مضجع المسلمين وأيقظتهم ، ودب فيهـم دبيـب الحيـاة ، يقـول فـي قصيـدتـه البليغـة «طلـوع

الإسلام»: «إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة تخفق، فاعلم أن الفجر قريب، ها هي الشمس قد ذر قرنها من الأفق، وولى الليل على أدباره، إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلىء في البحر المتلاطم الهائج، ولقد دب دبيب الحياة في الشرق، وجرى الدم الفائر في عروقه الميتة، وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابي، إن المسلم سيمنح من الله الأبهة التركية، والذكاء الهندي، والنطق العربي»، ويقول في بيت: «إن إقبال ليس يائساً من تربته الحقيرة، فإنها إذا سقيت أتت بحاصل كبير».

المسلـم هـو بانـي العالـم الجديـد:

ويرى محمد إقبال أن الحضارة الغربية قد مثلت دورها، ونثرت كنانتها، وقد شاخت وهرمت، وأينعت كالفاكهة، وحان قطافها، وأن العالم القديم الذي حوله مقامرو الغرب إلى حانة الفساد والمقامرة منهار قريباً، والإنسانية تتمخض بعالم جديد، ويعتقد محمد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام بالأمس، وورث إبراهيم ومحمداً ﷺ في قيادة العالم وإرشاده، فيهيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم، وينشده بالله أن يقوم ويمسح النوم من عينيه، فقد ظهر الفساد في البر والبحر، وعاث الأوربيون في الأرض، وأفسدوا فيها بعد إصلاحها، وخربوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات، وشروراً وويلات، وليست هذه الأرض إلا بيتاً من بيوت الله جعلها مسجداً

وطهوراً ، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولكن الأوربيين قد حولوها إلى خمارة ، وبيت فسق ودعـارة ، ومكـان نهب وغـارة ، وقد آن لبـاني البيت الحـرام وحامل رسالة الإسلام أن يقوم ويصلح ما أفسده الأوربيون ، ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ويبني العالم من جديد.

* * *

إلــى الأمــة العـربيــة

خصص محمد إقبال قصيدة من أبدع قصائده للحديث مع الأمة العربية، ليسجل فيها فضلها وسبقها، في حمل الرسالة الإسلامية ، والأخذ بيد الإنسانية ، وافتتاحها لتاريخ جديد وفجر سعيد ، وسرعان ما ينتقل إلى موضعه الحبيب الأثير ، فيذكر الشخصية الحبيبة التي كانت على يدها نهضة هذه الأمة وسعادتها ، بل نهضة الإنسانية وسعادتها ، فيرسل على عادته النفس على سجيتها ، ويعطي القلب والعاطفة زمامه ، ويسترسل في الحديث ، فيقول:

«أيتها الأمة العربية! التي كتب الله لباديتها وصحرائها الخلود ، من الذي سمع العالم منه نداء «لا قيصر ولا كسرى» لأول مرة في التاريخ[1] ، ومن الذي أكرمه الله بالسبق إلى قراءة القرآن؟ من الذي أطلعه على سر التوحيد ، فنادى بأعلى صوته: «لا إله إلا الله» ، وما هي البقعة التي اشتعل فيها هذا السراج الذي أضاء به العالم؟ هل العلم والحكمة إلا فتات مائدتكم، وهل قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم

---

(١) يشير إلى الحديث المشهور: «إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده ، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده».

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ إلا وصف حالكم ، إن نفس ذلك الأمي أعاد على هذه الصحراء الخصب والنمو، فأنبتت الأزهار والرياحين، إن الحرية نشأت في أحضانه ، وإن حاضر الشعوب ليس إلا وليد أمسه ، إن الجسد البشري كان بلا قلب وروح ، فأعطاه القلب والروح ، وكشفت اللثام عن جمال وجهه ، إنه حطم كل صنم قديم ، وأفاض الحياة على غصن ذاو من أغصان العلوم والمدنية ، وأنجب أبطالاً وقادة مؤمنين ، أقاموا المعارك الفاصلة بين الحق والباطل ، فتارة يدوي الأذان في ساحة الحرب ، وتارة تتجلى الآذان بقراءة «الصافات»[١] بين صليل السيوف وصهيل الخيول ، إن سيف البطل المغوار كصلاح الدين الأيوبي ، ونظرة الزاهد الأواب كأبي يزيد البسطامي ، مفتاحان لكنوز الدنيا والآخرة.

إن العقل والقلب يجتمعان تحت لوائه ، وإن ذكر جلال الدين الرومي ، وفكر فخر الدين الرازي يلتجئان تحت ردائه ، إن العلم ، والحكمة ، والشرع ، والدين ، والملك ، والإدارة، ولوعة القلوب ، مقتبسة من نوره، وليست «الحمراء» في غرناطة ، وقصر «التاج» في آكره[٢] ، اللذان خضع لجمالهما وجلالهما كبار

---

(١) يشير إلى سورة «الصافات».

(٢) يعني «التاج المحل» الذي بناه الإمبراطور المغولي «شاه جهان»، ويعتبر آية في الفن المعماري ، ويأتي إليه الجوالون والزائرون من أقاصي البلاد.

الفنانين الناقدين ، وعظماء العباد الزاهدين ، ليس إلا صدقة من صدقات بعثته ، ومظهراً من مظاهر عبقرية أمته ، إن بعض ظاهره تجلى في سمو ذوق أمته ، وسلامة تفكيرها ، وجمال فنها ، أما باطنه فقد تقاصر عن إدراكه كبار العارفين.

لقد كان الإنسان حفنة من تراب ، وقبضة من أشلاء وعظام ، لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان ، فعرفه بالعلم والإيمان ، وأذاقه لذة العبادة والإحسان ، فجزاه الله عن الإنسانية أفضل الجزاء».

يذكر إقبال الأمة العربية عهدها القديم قبل البعثة حين كان نظام العرب فوضى ، يعيشون كالبهائم التي لا هم لها في الحياة إلا الأكل والشرب ، وكان مثلهم كمثل السيف المفلول يتراءى للناظر لامعاً قاطعاً ، ولكن ليست له ظبة فهو لا ينتفع به ، فيقول الشاعر(١) :

«أيها العرب قد منَّ الله عليكم ، إذ جعلكم مثل السيف البتار أو أحَدَّ منه ، وكنتم فيما قبل ترعون الإبل في الصحراء ، تركبون عليها، وتظعنون بها ، ثم انعكست الآية ، فسخر الله لكم المقادير ، فضلاً عن الإبل ، فأصبحتم من مالكي أعنتها ، فلو أقسمتم على الله لأبركم ، وهنالك دوت تكبيراتكم وصلواتكم ، وزمزمت جلبة حروبكم ومغازيكم بين الخافقين ، فارتج بها ما بين الشرق

---

(١) من ترجمة الأستاذ سعيد الندوي بتوجيه من المؤلف وقد تناولها بالحذف والزيادة.

والغرب ، فما أحسن تلك المغامرات ، وما أجمل تلك الغزوات» .

وبعد ما يمدحهم الشاعر، ويذكر حماستهم الإسلامية، وغضبتهم المضرية في الله ورسوله ، ويبدي فرحه وسروره ، يقف برهة، ويملكه الحزن، والتألم بما يرى من خمود العرب بعد النشاط، والإحجام بعد الإقدام، والفرقة بعد الوحدة، والعبودية بعد السيادة ، والاتباع بعد القيادة ، ويقبل إليهم مخاطباً معاتباً ، ويقول :

«أسفاً على هذا الخمود والجمود ، أيها العرب! ألا ترون إلى الأمم الأخرى ، كيف تقدمت وسبقت! أما أنتم فما قدرتم قدر هذه الصحراء التي نشأتم فيها ، وهذه الحرية التي ورثتموها ، كنتم أمة واحدة ، أمة الإسلام ، فصرتم اليوم أمماً ، وكنتم حزباً واحداً ، حزب الله ، فأصبحتم أحزاباً ، لقد فرقتم جمعكم ، ومزقتم شملكم ، وانقسمتم على أنفسكم» .

«اعلموا أيها السادة! أن من ثار على شخصيته وكرامته ، وفقد الثقة بنفسه مات ومحي من الوجود ، ومن فر من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفل على مائدتهم ، عوقب بالهوان والشقاء ، والطرد والجلاء ، ألا إنه لم يجن عدو على عدو مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ، ولم يسىء أحد إلى أحد إساءتكم إلى أمتكم ، إنكم آذيتم روح رسول الله ﷺ بصنيعكم ، فهي متألمة متوجعة شاكية مستغيثة» .

الشاعر عارف بمكائد الإفرنج ، وما لديهم من سهام مسمومة ، وحبائل منصوبة، وهو شديد المعرفة بهم، وقد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم ، فهو يتألم إذ يرى في الأمة العربية من يحسن الظن بهم ، ويعتمد عليهم في بناء صرح الحياة ، وفض المشكلات ، فيرسل صيحته وينذرهم من المصير المظلم المؤلم ، ويقول :

«مهلاً أيها الغافلون! إياكم والركون إلى الإفرنج ، والاعتماد عليهم ، ارفعوا رؤوسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في مطاوي ثيابهم ، ألا إنه لا حيلة لكم ولا وزر إلا أن تطردوهم عن منهلكم وتذودوهم عن حوضكم ، إن حكمة الغرب قد أسرت الأمم ، وتركتها سليبة حزينة لا تملك شيئاً ، إنها مزقت وحدة العرب ، واقتسمت تـراثهم ، إن العرب لما وقعوا في حبـالهم تنكر لهم كل شيء ، وقسا عليهم هذا الكون ، ولـم يجدوا من يرثـي لهـم ويرفـق بهـم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم» .

وبعد ما يفيض الشاعر في بيان شرور الإفرنج ومكائدهم ، ويحذر العرب من الانسياق إليهم والوقوع في شركهم ، يقبل إلى تشجيع العرب والترفيه عنهم ، ويقول :

«إن الله قد رزقكم البصيرة النافذة ، ولا تزال فيكم الشرارة كامنة ، فقوموا أيها العرب! وردوا فيكم روح عمر بن الخطاب مرة أخرى ، إن منبع القوة ومصدرها هو الدين ، منه يستمد المؤمن العزم واليقين ، وما دامت ضمائركم أمينة للسر الإلهي ، فيا عمار

البادية! أنتم الحراس للدين ، وأمناء الله في العالمين .

إن غريزتكم العربية الإسلامية ميزان للخير والشر ، وأنتم ورثة الأرض ، إذا تألق نجمكم في آفاق السماء أفلت نجوم الآخرين ، وطوي بساطهم ، لن تسعهم الصحراء والفيافي ، فاضربوا خيمتكم في وجودكم ، الذي يسع الآفاق ، كونوا أسرع من العاصفة وأقوى من السيل ، حتى تسرع ركائبكم في مضمار الحياة وتسبق الريح» .

«ليت شعري! من خلفكم في الحياة؟ إن العصر الحاضر وليد نشاطكم وكفاحكم ، وصنيع جهادكم ودعوتكم ، وما زلتم سادته وولاته حتى أفلت زمامه منكم ، فتبناه الغرب وامتلكه ، ومن ذلك اليوم فقد هذا العصر وهذا المجتمع الإنساني شرفه وكرامته ، وأصبح تحت ولايته منافقاً خليعاً ، ثائراً على الدين» .

«فيا رجل البادية! ويا سيد الصحراء! عد إلى قوتك وعزتك ، وامتلك ناصية الأيام ، وخذ عنان التاريخ وخذ قافلة البشرية إلى الغاية المثلى» .

وهنا نبذة أخرى من أبياته يشكو فيها إلى روح رسول الله ﷺ ضياع الأمة الإسلامية ، وانطفاء شعلة الحياة والإيمان في نفوس العرب ، ويشكو وحدته وغربته في هذا المجتمع الإسلامي البارد الجامد، ويناجيه مناجاة من قام بين يديه، وأذن له في الكلام، ويقول :

«لقد تشتت شمل أمتك يا محمد! يا رسول الله ، فإلى أين يلجأ

المسلم الحزين وإلى من يأوي؟ لقد سكن بحر العرب المضطرب المائج ، وفقدت الأمة العربية ذلك اللوع وذلك القلق الذي عرفت به ، فإلى من أشكو ألمي ، وأين أجد من يساعدني على آلامي وأحزاني؟ وماذا يفعل حادي أمتك ، وكيف يقطع الطريق الشاسع ، ويطوي السفر البعيد في هذه الجبال والمهامه ، وقد ضل سبيله ، وفقد زاده ، وانقطع عن الركب ، بالله! قل لي ماذا يصنع حامل دعوتك ، المؤمن برسالتك ، وأين يجد زملاءه ورفقته؟».

ويؤلم الشاعر أن يرى العرب لا يزالون ينظرون إلى الأوربيين الإنجليز والأمريكيين كأصدقاء مخلصين ، وأعوان منجدين ، يحلون لهم مشكلة اللاجئين ، ويردون إليهم أرض فلسطين ، مع أنهم لا يزالون تحت سيطرة اليهود ونفوذهم السياسي والاقتصادي والصحافي ، يقول:

«أنا أعلم جيداً يا إخوتي العرب! أن النار التي شغلت الزمان وبهرت التاريخ ، لم تزل ولا تزال تشتعل في وجودكم ، صدقوا أيها السادة! إنه لا دواء لكم في جنيف ولا في لندن ، لأنكم تعلمون أن اليهود لا يزالون يتحكمون في سياسة أوربا ، ولا يزالون يملكون زمامها ، إن الأمم لا تذوق طعم الحرية والاستقلال حتى تربي فيها الشخصية والاعتداد بالنفس ، وتعرف لذة الظهور».

وأخيراً يقول كلمة صريحة مركزة بليغة مع تلطف واعتذار :

«معذرة يا عظماء العرب! لقد أراد هذا الهندي [(١)] ، أن يخاطبكم ويقول لكم كلمة صريحة ، فلا تقولوا أيها الكرام: هندي ، ونصيحة للعرب؟ إنكم كنتم يا معشر العرب! أسبق الأمم إلى معرفة حقيقة هذا الدين ، وإنه لا يتم الاتصال بمحمد ﷺ إلا بانقطاع عن «أبي لهب» ، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت ، كذلك لا تتم الفكرة الإسلامية إلا بإنكار القوميات والوطنيات ، والفلسفات المادية ، إن العالم العربي ، أيها السادة! لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود ، وإنما يقوم على أساس هذا الدين الإسلامي وعلى الصلة بمحمد ﷺ» .

* * *

---

(١) لا يعزبن عن البال أن محمد إقبال توفي قبل ولادة باكستان بعشر سنوات، وقبل أن تكون هناك جنسية باكستانية.

في جامع قرطبة

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ، ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمن شاعر ، وقفة خاشع أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشع أمام العاطفة القوية ، والحب الطاهر ، الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفن الإسلامي العربي الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كل ذلك إيمانه وشاعريته ، ورأى أن هذا المسجد العظيم صورة للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علو في الهمة ، واتساع في القلب ، وبساطة في المظهر ، وبراءة في النية ، وثبات على الحق ، وإعلان للعقيدة والمبدأ ، وجمع بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه وشادوه ، وتذكر بهم

العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوي في الجو ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمة ، فليس له نظير في الأصوات والهتافات والإعلانات والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفس له الصبح الصادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ، وانطلقت موجة من نور ، عاشت بها الدنيا وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصادق ، إلا هذا الأذان الصادق الذي ينادي به المؤمن الصادق.

وتذكر بهذا الأذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأن الأمة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى.

حرك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخي ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرك كل ذلك في إقبال الإيمان والحنان ، والأحزان والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة التي أسماها «في جامع قرطبة» وقد كتبها في أسبانيا ، وأكثرها في قرطبة.

ذكر محمد إقبال أن هذا العالم خاضع للفناء ، وأن الآثار التي تخلفها الأجيال ، وأن البدائع الفنية التي تنتجها العبقرية الإنسانية بين حين وآخر ، كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبد مخلص لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ، لأن عمله يستمد الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبه القوي الخالص [١] ـ والحب هو أصل الحياة الذي حرم الله عليه الموت ـ إن الدهر سريع ورفيق في سيره ، وهو تيار عنيف لا يقف في طريقه شيء ، والحب هو القوة الوحيدة التي تقفه لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إن الحب غير خاضع للنظام الرياضي المرسوم ، فله عصور ليس لها اسم في لغتنا ، الحب هو الذي تجلى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور والسرور ونشوة الخمور ، التي سكر بها العارفون ، وتغنى بها المحبون ، الحب قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ويهزم الأحزاب ، فله أطوار وأدوار ، وهو رحالة لا يزال في سير وانتقال ، وحل وترحال ، له منازل ومقامات يمر بها ويخلفها وراءه ، هو الذي أطلق قيثارة الحياة فانطلقت منها

---

(١) الحب أو «العشق» كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقة جامعة بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

نغمات وأناشيد ، وهو الذي استمدت منه الحياة نورها ونارها.

ثم يلتفت الشاعر العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له: «تدين أيها المسجد العظيم! في وجودك لهذا الحب البريء ، ولهذه العاطفة القوية ، التي كتب لها الخلود فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إن البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعات سطحية من لون، أو قرميد ، أو حجر ، أو لفظة ، أو كتابة ، أو صوت ، لا حياة فيها ولا روح ، إن المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحب ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحب هو الذي يفرق بين قطعة من حجر ، وقلب خفاق حنون للبشر ، فإذا فاضت منه قطرة على الحجارة الصماء خفقت وعاشت ، وإذا تجردت منه القلوب الإنسانية جمدت وماتت».

ويقول في عقيدة مؤمن ، ودلال شاعر محب: «إن بيني وبينك أيها المسجد العظيم! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إن الإنسان في تكوينه وخلقه قبضة من طين لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدراً لا يقل عن العرش كرامة وسمواً ، فقد أشرق بنور ربه وحمل أمانة الله ، إن الملائكة تمتاز بالسجود الدائم ، ولكن من أين لهم تلك اللوعة واللذة التي امتاز بها سجود الإنسان؟!.

وهنا يتذكر محمد إقبال جنسيته ووطنيته ، ويتذكر أنه هندي

النجار ، وأنه من إحدى بيوتات «البراهمة»[١] ، ويتذكر أنه أمام أثر إسلامي عربي صميم قديم ، فيقول: «انظر أيها المسجد! إلى هذا الهندي ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار وعباد الأصنام ـ كيف غمر قلبه الحب والحنان ، وكيف فاض قلبه ولسانه بالصلاة على نبي الرحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان».

ويذكره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمة الإسلامية العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنه صورة صادقة للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدة كثيرة ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقة بنور ربها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلاً للملائكة ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمان وثقة: «إن المسلم حي خالد ، لا يزول ولا ينقرض لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم وموسى ، وجاء بها النبيون ، وقد

---

(١) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى «سبرو» أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة.

قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفلت بتبليغ هذه الرسالة!» .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول: «إن المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وسعت عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربا ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع ومحيطه الأعظم ، إن له عصوراً في التاريخ لا يقضى منها العجب ، وله حكايات ومواقف في البطولة لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرحيل ، وافتتح العصر الجديد ، إنه إمام رجال الحب والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانه لبن وعسل ، وسيفه علقم وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد ، كلما اشتد به الخطب وعضته الحرب التجأ إلى إيمانه واعتماده على الله» .

ويقبل على المسجد يتحدث إليه ويناجيه ويقول: «لقد كشفت أيها المسجد العظيم! عن سر المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصورت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ، صورت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السامي ، ومسراته وأشواقه ، وتواضعه ودلاله» .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموه وأخلاقه وسيرته في العالم ، فيقول: «إن يد المؤمن هي جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلابة، فتاحة ، قاهرة ، ناصرة ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبد تخلق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلة ، وأهدافه ومطامحه رفيعة جليلة ، ألقي عليه الحب وكسي المهابة والجمال ، رقيق رفيق في الحديث ، قوي نشيط في الكفاح ، نزيه بريء في السلم والحرب ، إن إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكل ما عداه وهم وطلسم ومجاز ، إنه الغاية التي يصل إليها العقل ، ولب لباب الإيمان والحب ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها وقوتها».

ويقبل مرة ثانية على المسجد ، فيخاطبه في إجلال وإكبار ، ويقول: «يا مثابة هواة الفن! ويا مقصد رواد الجمال! ويا مجد الدين الإسلامي! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدست في أعين المسلمين ، إنك فريد في الفن والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك الرجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أن حكومة أهل القلوب خدمة وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذين كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحاب عقول حصيفة وبصيرة نافذة ، يوم كانت أوربا تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام

الحالك ، والذين لا تزال في الشعب الأسباني بفضل دمهم العربي ، خفة روح ، وحفاوة ، وبساطة ، وجمال شرقي ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ورنات الحجاز» .

ثم يخاطب أسبانيا ـ الأندلس الإسلامي المغصوب ـ فيتغنى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعة ، ويتوجع على أن أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مر على العالم المتمدن من تقلبات وثورات ، ويتشوق إلى ثورة جديدة ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول: «لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الديني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربا ، فجحدت أوربا المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرر الفكر الأوربي ، وتحركت سفينته في يسر وسهولة ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربا اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد [1] ، هكذا الروح الإسلامية مضطربة قلقة ، تطلب انتفاضة جديدة ، ولكن متى ذلك؟ إنه سر من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخض بحوادث جسام ، فلا يستطيع أحد أن يتكهن بالمستقبل» ،

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح، والاعتداد بالنفس ، والقومية الرومية .

ويخاطب نهر قرطبة «الوادي الكبير» ويقول: «إن على شاطئك أيها النهر العزيز! رجلاً يرى حلماً لذيذاً، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيات الغيب، يرى عصراً قد بدت تباشيره، وظهرت طلائعه لعينه، ولكنها لا تزال محجوبة عن أعين الناس، لو كشفت الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد، وبحت ما في صدري من أفكار وأسرار، لشق ذلك على أوربا، وفقدت رشدها وجن جنونها».

ثم يعود مرة ثانية، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة، ويقول: «كل حياة لا تجديد فيها ولا ثورة أشبه بالموت، إن الصراع هو حياة روح الأمم، إن أمة تحاسب عملها في كل زمان سيف بتار في يد القدر، لا يقاومه شيء ولا يقف في وجهه شيء»(١).

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة، بكلمة حكيمة مأثورة، مبنية على تجارب واسعة، ودراسات عميقة، واستعراض واسع للأدب والشعر والفن والأفكار، يقول:

«إن كل مأثرة وكل إنتاج، لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص، وجدير بالفناء والزوال السريع، وكل رنة أو نشيد لم يدم له القلب، ولم تتألم به النفس قبل أن يصدر، ضرب من العبث والتسلية ولا مستقبل له في المجتمع وعالم الأفكار».

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية.

وهذا هو سر الخلود والبقاء للآداب والأفكار والإنتاج ، وهذا سر تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ويموت سريعاً ، وهذا هو سر التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه .

فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا؟ .

* * *

فـي أرض فـلسطيـن

تحركت السيارات التي كانت تقل ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م)، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنها جداول نور نبعت من عين الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرور وإلهام للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذي جاء من أوربا يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي، وبدأ يتمتع بهذا المنظر الخلاب ، ويسخو بنظراته ـ التي يحتفظ بها الشعراء ـ في سبيل القلب ، فكل نظرة تضيع في جمال الطبيعة ترجع إلى القلب بالربح العظيم ، لأنها تشحن «بطاريته» بالنور الجديد ، والقوة الجديدة.

هذا وقد تهيأ الجو، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم وإثارة قريحته، فقد غطت الجو سحائب ذات الألوان، واكتست جبال فلسطين بطيلسان جميل زاهي اللون،وهب النسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النخيل مصقولة مغسولة بأمطار الليل ،

وأصبحت الرمال في نعومتها وصفائها حريراً.

ورأى الشاعر العظيم آثار نيران انطفأت قريباً، وأثافي [١] منثورة هنا وهناك، وبقايا من خيام وأخبية، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب، تخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت.

وطاب المكان والزمان للشاعر، وسمع كأن منادياً من السماء يحثه على أن يلقي عصا التسيار، ويؤثره بإقامته [٢].

حرك هذا المنظر البديع في هذا المكان الرفيع، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة والرسالات السماوية، عواطف الشاعر وهاجت قريحته، وتحرك الحب الدفين، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن وتظهر الكوامن، فيتذكر الإنسان أحب شيء إليه، فيحن إليه، ويتمثله، ويتغنى به، وقد حل «الإسلام»، وحلت الأمة الإسلامية في قلبه محل الحبيب الأثير، وسيطر حبه على مشاعره، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه، وتغنى بجماله ومحاسنه، وركز آماله وأحلامه عليه، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ:

ولما نزلنا منزلاً طله الندى   أنيقاً، وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه   مني، فتمنينا، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر، ورأى أن ركب الحياة بطيء

(١) الأثافي: الحجارة التي توضع عليها القدور.
(٢) الوصف للمكان والمنظر لإقبال، نقلناه إلى العربية في لفظنا.

لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أن العالم عتيق شائب ، وفكره «الإسلامي» جديد فتي ، ورأى أن العالم قد تجددت فيه أصنام وأوثان ، وبنيت هياكل جديدة يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات.

وقد تسربت هذه الوثنية إلى العالم الإسلامي والعربي ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورة إبراهيمية جديدة ، إلى كاسر أصنام يدخل في هذا الهيكل فيجعل هذه الأصنام جذاذاً؟.

وسرح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربي قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجمي قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أن النظام المادي ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ، ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن علي في حميته وفروسيته.

ورجا العالم الإسلامي أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلد عربي ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته، وتطلع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعاف وإنجاز ، ولم تتجدد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد.

وهناك شعر محمد إقبال أن السبب في هذا التحول العظيم ، هو

ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحب وتأثيره ، ويقول:

«لا بد أن يعيش العقل والعلم في حضانة الحب ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بد أن تسند الدين وتغذيه عاطفة قوية ، وحب منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرد الدين عن العاطفة والحب أصبح مجموعة من طقوس ، وأوضاع ، وأحكام لا حياة فيها ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوة ، هذا الحب الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل وصبر الحسين ، وهو الذي تجلى في معركة بدر وحنين».

وهنا يقبل الشاعر الكبير على «المسلم» الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته وشخصيته ، فيقول: «إنك غاية وجود هذا الكون ، ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون».

ثم يستعرض العالم الإسلامي ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمة وقلة البضاعة [1] في رجال الدين ، ويرى أن المراكز العلمية والدينية ـ بمعناها الواسع ـ محرومة من عمق

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما هم بصدده.

الفكر، وسلامة الذوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلامي ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول: «إني هائم في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارة ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت ، وأولئك الأبطال الذين رحلوا وغابوا في غياهب الماضي ، إن شعري يوقظ العقول ، ويهز النفوس ، ويربي الآمال في الصدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسة وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ، ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد».

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنه ذرة حقيرة أو قطرة صغيرة في جنب هذه السعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرة فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلى بالجلال فكان في الأرض ملوك كبار ساقوا الأمم وحكموا العالم ، وكيف تجلى بالجمال فكان زهاد وعباد ، زهدوا في متاع الدنيا ورفقوا بخلق الله ويقول: «إن الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياة روحانية ، فإذا تجردت صلاتي من هذا الحنين لم أر أنها تقربني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد

توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب» ، ويناجي ربه ويقول: «إن الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد» .

ويعترف أمام الله بأنه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنه قد اتضح له أخيراً أن المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كل من درس علم النخيل تمتع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصراع الذي لم يزل ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركة قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكل حلفاء ، ولكل معسكر»[١] .

فلينظر العالم العربي إلى أي معسكر ينضم؟ إلى معسكر المادة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أي راية ينضوي؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمدية التي التف حولها أبو بكر وعمر .

* * *

(١) من «بال جبريل» ديوان شعر إقبال، قصيدة «ذوق وشوق».

في غـزنيـن

سافر محمد إقبال على دعوة من ملك الأفغان الشهيد نادر شاه ، عام ١٩٣٣م إلى أفغانستان ، ومر في طريقه على غزنين عاصمة إسكندر الإسلام السلطان محمود الغزنوي ، وزار قبر الشاعر الحكيم السنائي الغزنوي [١] ، الذي يعتبره محمد إقبال أستاذاً له في الشعر والحكمة ، وسلفاً بعد مولانا جلال الدين الرومي ، وطاب له الوقت ، وفاضت قريحته بشعر إسلامي حكيم ، بث فيه أشواقه وآماله وآلامه ، ونظر فيه إلى العالم المعاصر بعين حكيم شاعر ، ومؤمن ثائر ، وسجله تذكاراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية ، يشكو الشاعر العظيم ، في مستهل هذه القصيدة ، ضيق هذا الكون ، ويذكر أنه مع سعته التي يوصف بها لا يسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أن هذه الدنيا ـ برحابها الواسعة ، وصحاريها المترامية ،

---

(١) هو من كبار شعراء العهد الغزنوي ، نشأ كشاعر غزل ومديح ، ولقب بملك الشعراء في البلاط ، ثم جذبه التوفيق الإلهي ، فعزف عن الدنيا ومدائح الملوك ، وعكف على الشعر الوجداني ، ونظم الحقائق والمعارف الإلهية ، توفي حوالي سنة ٥٢٥ هـ.

ومتعتها الفاتنة ـ لا تسع فرداً واحداً رزقه الله علو الهمة ، وكبر النفس ، وحرارة الحب ، ويتهمه بسوء التقدير ، وضيق التفكير ، ويقول في صراحة وثقة : «إن من عرف نفسه وقيمته تحرر من هذا العالم المادي ، وتمرد عليه ، وذلك سر التوحيد الذي لا يزال الناس في غفلة عنه ، وإن من تفتحت بصيرته ، تجلى له الجمال الإلهي ، فرآه في هذا الكون» .

ويذكر هنا محمد إقبال أنه لا صراع بين العلم والمعرفة والحب ، وإنما هو من تصوير المنتسبين إلى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ، فقد رأوا فيمن ملكه الحب ، المنافس للعلم والدين ، وقسوا أو أسرعوا في الحكم عليه ، ويقول : «إن الاستغناء عن المادة وأصحابها ، والحكومة ورجالها ، هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية ، فلا سبيل إليهم ، ولا سلطان عليهم للملوك والأغنياء» ، ثم يقول في دلال واعتداد : «لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلدني في لوعتي وسكري ، فتلك نعمة خص الله بها بني آدم ، وحسبك الذكر والتسبيح والطواف ، الذي جبل الله عليه الملائكة الكرام» .

وهنا يقبل الشاعر إلى العالم الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ، ويقول : «لقد عرفتهما وعشت فيهما زماناً ولا ينبئك مثل خبير» ، ثم يقص ما يعانيان من أزمة ، وما يقاسيان من علة ، فيصورهما تصويراً صادقاً دقيقاً لا يستطيعه إلا من اختبر الشرق

والغرب ، ويقول: «أما الشرق فقد توفر فيه الاستعداد ، ولكن يعوزه الموجه والقيادة الرشيدة ، وأما الغرب فقد أتخم بالقوة والوسائل ولكن حرم لذة الإيمان ، وبرد اليقين» ، ويتذكر العالم الإسلامي ، فيقول: «لقد انقرض منه أولئك العماليق الذين كانوا يتحدون الملوك والأباطرة بأنفتهم ، وكان في فقرهم وزهادتهم حتف للاستبداد».

ويتذكر العالم العربي فتحزنه الأوضاع الفاسدة هناك(١) ، يحزنه عبث الملوك العرب وأمرائهم ، وزعمائهم ببلادهم العزيزة ، والمقدسات الإسلامية ، ووقوعهم في شباك الأجانب مرة بعد مرة ، وانهماكهم في لذاتهم وشهواتهم ، فتصدر منه كلمة قاسية لاذعة ، لم يصدرها إلا الإيمان العميق ، والحمية الإسلامية فيقول: «إن هؤلاء الشيوخ والأمراء لا يستغرب منهم أن يبيعوا جبة أبي ذر ، وكساء أويس القرني ، ورداء فاطمة الزهراء(٢) ، وأعز المقدسات في كأس يحتسونها ، ولذة ينتهبونها» ، ويقول: «إن نفوذ الأجانب في جزيرة العرب والأقطار العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثير من أجزائها ، حقيقة مؤلمة ، يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة الساعة ورجفة القيامة». وتمثل بشطر بيت

---

(١) لا ينسى القارىء أن هذه القصيدة قيلت في عام ١٩٣٣ م.
(٢) كنايات عن المقدسات والأشياء الحبيبة إلى نفوس المسلمين.

للحكيم السنائي ـ الذي وقف إقبال على قبره ونظم هذه القصيدة ـ قاله عندما ملك التتار العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وهددوا الحرمين الشريفين: «لقد ملك التتار مركز الإسلام ، والعرب ـ الذين كانت لهم الوصاية على العالم الإسلامي ، وهم مسؤولون عنه ـ في نوم عميق لذيذ».

وينتقد الشاعر الحضارة العصرية ، التي كان مصدرها أوربا الثائرة الحائرة، فيقول في تحليل عالم فيلسوف : إن الحياة الإنسانية لا تستقيم، ولا تتزن إلا إذا جمعت بين النفي والإثبات، بين الجحود بالزائف الباطل ، وبين الإيمان بالحق الثابت ، وتلك هي الكلمة الجامعة التي أصبحت شعار الإسلام ، وعقيدته لا إله إلا الله».

فالشطر الأول ـ الذي هو النفي ـ إنكار لجميع الآلهة الباطلة من أصنام ، ومادة ، وسلطان ، والشطر الثاني ـ الذي هو الإثبات ـ إقرار للحق الذي لا حق غيره ، وقد قطعت أوربا الشوط الأول بشجاعة وقوة، وأنكرت الوسائط بين الله وبين العبد ، وثارت على الاحتكار الديني الذي مثلته الكنيسة اللاتينية في القرون الوسطى ، وألحت عليه رجال الدين والكهنوت ، وثارت كذلك على الحكومات الجائرة المستبدة ، فأحسنت ، ولكن خذلها التوفيق في قطع الشوط الثاني الأخير ، شوط الإثبات ، والتقرير ، والإيمان الجازم ، والإنسان لا يعيش على النفي فقط ، ولا يتكون المجتمع ، ولا تقوم الحضارة على النفي وحده ، فلذلك بقيت

أوربا ـ التي أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيمها، وسخرت الطبيعة لمقاصدها ومصالحها ـ حائرة مضطربة تائهة لا تملك العاطفة ، ولا تملك الغايات الصالحة ، وأصبحت مهددة في الزمن الأخير بالانهيار أو الانتحار» ، وهكذا لخص محمد إقبال تاريخ أوربا المدني والفكري الطويل ، في عبارة وجيزة ، ومقطوعة شعرية هي عصارة دراسة طويلة وتفكير عميق.

والشاعر غير متشائم في نظرته وحكمه ، وهو غير يائس من مستقبل الشرق ، فيقول: «إن الشرق زاخر بالقوة والإنتاج ، وتبدو من هذا المحيط الهادي ، موجة قوية تهز العالم وتزلزل أوكار الفساد والاستبداد» ، ويرجع الشاعر فينعي على الاستعمار الذي يرزح تحته الشرق الإسلامي ، والذي أثر في تفكيره ومشاعره ، ففقد الشعور بالجمال ، وأصبح لا يوثق بآرائه واتجاهاته ، ويقول: «إن المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه ، ولا يعتمد على استحسانه واستهجانه ، وإنما الميزان هو الرجل الحر والشعب الحر ، الذي يعيش حراً كريماً، مستقلاً بتفكيره وميوله ، فإن الأحرار هم وحدهم أصحاب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة ، وإن رجل الساعة هو الذي شق بهمته الطريق إلى المستقبل ، ولم يقتنع بالحاضر».

ويرجع إلى تأثير الثقافة الأوربية في عقول الشباب الإسلامي ـ ومن أدرى بها ، فقد نشأ في أحضانها ـ فيقول: «لقد نجح المربي الغربي ، الذي برع وفاق في صناعة الزجاج في مهمته ، حتى

استطاع أن يضعف الأمم التي عرفت بالنخوة والشكيمة والأنفة ، فأصبحت شعوباً رخوة ناعمة ، وأثر في الصخور والحجارة حتى أصبحت تسيل رقة ، وفقدت صلابتها واستقامتها [١] ، وبالعكس قد ملكت الأكسير الذي يحول الزجاج إلى حجارة صماء ، لا تؤثر فيها السيول الجارفة والمعاول الهدامة ، لقد استطعت أن أقاوم الفراعنة الذين ما زالوا مني بالمرصاد ، بفضل اليد البيضاء [٢] ، التي أخفيها في أكمامي ، ولا عجب ، فإن الشرارة التي خلقت لتحرق غابة بأسرها ، لا يتغلب عليها الحشيش والهشيم» .

«إن الحب يبعث في الرجل الاعتداد بالنفس والاحتفاظ بالكرامة ، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمادة والسلطان» .

وهنا تأخذه الهزة ، ويملكه حب النبي ﷺ ، والإعجاب بشخصيته المعجزة ، ورسالته الخالدة ـ وهو الموضوع الذي لا يملك إقبال أمامه نفسه ـ فيقول : «لا عجب إذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي الأفلاك والكواكب ، فقد ربطت نفسي بركاب سيد عظيم لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جده ، ذلك هو البصير

---

(١) يكنى به إقبال عن تأثير الحضارة الأوربية في أخلاق الشرقيين وما يتصفون به بعد الثقافة الأوربية ، من الرقة والنعومة والفسولة .

(٢) كناية عن الإيمان والاستغناء عن المادة .

بالسبل ، خاتم الرسل ، وإمام الكل ، محمد ﷺ ، الذي وطأت قدمه الحصباء فأصبحت إثمداً يكتحل به السعداء» .

وهنا يقف الشاعر ويقول : «يمنعني الحياء من الشاعر الحكيم ـ السنائي الغزنوي ـ والأدب معه ، أن أسترسل في الكلام وأطيل الموضوع ، وإلا أمامي مجال واسع من المعاني ، والبحر زاخر بالدرر واللآلىء» .

* * *

دعـــاء طـــارق

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشاب ـ بجيشه العربي المسلم على أرض أسبانيا ، مدخل أوربا ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه: «أيها الناس أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر» [1] ، فيثير ذلك فيهم القوة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم على سواعدهم وسيوفهم.

صف طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العدة والعدد ، ووصول الميرة والمدد ، فإن العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريب منقطع عن مركزه وبلاده ، لا يطمع في ميرة ولا مدد ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً، ويتغلب عليه، ويعرف أنه لو حدث به حدث، ودارت عليه دائرة لأصبح خبراً من الأخبار، وكان طعمة السباع والنسور.

كل ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكر فلم ير حيلة

---

(١) قطعة من خطبة طارق بن زياد.

إلا أن يضم إلى هذا الجيش قوة لا تهزم ، وإرادة لا تغلب ، إنها القوة الإلهية ، وإنها الإرادة الربانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله؟ أما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله: ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(١) .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربه ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلداً للرسول الأعظم ﷺ ـ قائد الكتيبة المؤمنة الأولى ـ إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد» ، فتأسى طارق برسوله وسيده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره.

قال طارق: اللهم! إن هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك وابتغاء مرضاتك، رجال غامضون مجهولون لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً وعلو همة ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم، يحكمون الدنيا كلها بحكمك، وينفذون فيها أمرك، لا يعلوهم غيرك، أبطال مغاوير، تنفلق بهيبتهم البحار، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذة الإيمان والحب ، حتى

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٧٣ .

استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدنيا وزخارفها وشهواتها ، وذلك شأن الحب إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إن العالم قد وقف على شفا حفرة من النار ، لا يمنعه من التردي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ونفوسهم بسخاء وشجاعة ، إن العالم بحاجة إلى دم عربي زكي ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي غليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحل الربيع بعد انتظار شاق طال أمده .

لقد أكرمت يا رب! رعاة الإبل وسكان الوبر ـ العرب ـ بنعم فريدة لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلم جديد ، وإيمان جديد ، وشعار جديد ، هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم في العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلة من الناس ، أما العرب فقد فاجؤوا العالم بصحة علمهم ، وجدة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودوي آذانهم في السكون المخيم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرون

طويلة ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنهم لا ينظرون إلى الموت كنهاية لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب! إلى هذه الأمة المؤمنة ، الحمية الإيمانية والغضبة المؤمنة ، التي تجلت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (١) ، حتى تصبح صاعقة على عالم الكفر والفساد ، واخلق فيها المطامح البعيدة والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبها وهيبتها حتى تعمل نظراتها عمل السيوف (٢) .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلامي على عدوه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت أسبانيا النصرانية الأوروبية الأندلس الإسلامي الغربي ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها وازدهرت قروناً ولم تضعف ولم تزل ، إلا بفقدهم الروح التي تضلع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، بانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ «ولن تجد لسنة الله تبديلاً» .

* * *

---

(١) سورة نوح، الآية: ٢٦ .

(٢) من «بال جبريل» ديوانه .

حديث الرّبيع

خيم سلطان الربيع ، وانتشرت جنوده في رحاب الصحراء وأودية الجبال ، وقامت دولة الزهور والرياحين ، ودبت الحياة إلى الصخرات والحجارة حتى كادت تنطق وتنطلق ، وغشيت العالم سحابة من المرح والسرور ، حتى أبت الطيور أن تستقر في أوكارها مرحاً ، وانطلقت عيون الجبال تميس وتنساب كالحيات في الصعيد ، تدب أحياناً ، وتجري برفق وهدوء ، وتتدفق أخرى وتجري بقوة وسرعة ، وإذا حبسها حابس فلقت الصخور والهضبات ، وشقت طريقها إلى الإمام ، وإنها بخريرها الدائم تغني نشيد الحياة وتردد حقائقها[١] .

يصغي محمد إقبال ـ الشاعر الحكيم ـ إلى هذا النشيد ، ويرى كيف تتلون هذه العين التي تدفقت من بعض الجبال ، وكيف تنعطف وتتعرج ، وتتداول الرفق والقوة وهي مع ذلك كله لا تفقد حقيقتها وحياتها متسلسلة في الفيضان ، مستمرة في الجريان ،

---

(١) مأخوذة من نفس قصيدة إقبال.

ويرى فيها صورة للحياة التي تجري باستمرار ، وتظهر في أدوار وأطوار ، وتلتزم الحركة والتطور ، فمالها من قرار ، ويستلهم الشاعر الحكيم من مناظر الربيع التي فتقت قريحته ، وأهاجت شاعريته ، ومن الدروس التي يلقيها نهر الحياة الفياض ، معاني حكيمة ، يهديها إلى الجيل الإسلامي الجديد ، الذي هو مناط آماله ، ويهيئه لاستقبال العصر الجديد الذي ظهرت تباشيره.

ويقول: «لقد تغير العصر وأوضاعه وتكشفت أسرار أوربا وما كانت تضمره وتبيته للشرق ، حتى أصبح فلاسفتها ودهاتها وزعماؤها في حيرة من أمرهم ، لقد أفلست السياسة الأوربية ، وأخفقت أساليبها القديمة ، وأصبح العالم يبغض الإمارة والملوكية ، وثار المجتمع على الأفراد والسلاطين ، لقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش ، وانتهت هذه المسرحية التي مثلها الملوك وأبطال ألف ليلة ، لقد تخطت اليقظة العالمية إلى شعوب معروفة بالكسل ، والسبات العميق ، وتدفقت عيون جبال همالايا ، وتهيأت جبال سينا وفاران ، لإشراق جديد».

ويقبل كعادته إلى أمته الإسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الإسلامي ، فيقول: «إن المسلم وإن كان لا يزال متحمساً في التوحيد ، فقلبه لم يتجرد بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها ، إن الحضارة والتصوف والديانة وعلم التوحيد ، لا يزال كل ذلك خاضعاً للنفوذ العجمي ، لقد طغت الخرافات على الحقيقة ،

وتاهت الأمة في الأخبار ، إن الخطيب [١] يسحر المجتمع بكلامه وخطاباته ، ولكنه جاف قليل الحظ من الحنان ، ولذة الشوق ، إن كلامه مؤسس على المنطق والقواعد، ومشحون بالمفردات الغريبة، والتراكيب البديعة، ولكنه لا يأسر القلوب، ولا ينفذ إلى أعماقها، أما «الصوفي» الذي تجرد لخدمة الحق ، والحب لخلق الله ، وكان يلتهب غيرة وحمية للدين، فقد ابتلعته الفلسفة العجمية، و«الشكليات الصوفية» [٢] ، لقد انطفأت شعلة الحب والحنان في المسلم ، فأصبح ركاماً من رماد ، لا شعلة فيه ولا حياة».

وهناك يدعو محمد إقبال ربه مخلصاً أن يعيد إلى هذه الأمة الحياة ، ويعيد إليها عهدها الإسلامي الزاهر الأول ، ويدعو أن يلهب في نفسه العاطفة ، ويشعل شعلة الحب فيستمد منها قوة ، وخفة روح وسمو لا يحظى به إلا «المحبون المؤمنون» فيطير بجناح الحب ويصل إلى ما لا يصل إليه الثقلاء الماديون ، ويدعو أن يخلق الله في هذه الأمة الهامدة الخامدة قلب عليّ ولوعة أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ وأن يبعث في صدورها الآمال التي ماتت.

وهنالك تأخذ الشاعر أريحية الشعر والإيمان ، فيقول: «حيا الله

---

(١) يعني به الوعاظ والخطباء الذين يخطبون ويؤلفون في المقاصد الدينية ويعظون الناس.

(٢) إشارة إلى تطور التصوف الإسلامي، وانحطاطه في العصر الأخير.

نجوم سمواتك ، التي تلمع ليلاً ، وعباد أرضك ، الذين يحيون الليالي عبادة وتلاوة ، أَحْيِ قلوب الشباب الإسلامي ، واجعلها خفاقة حساسة متوجعة ، وارزقهم يا رب! حبي ، وعاطفتي ، وفراستي ، وحكمتي.

لقد وقعت سفينتي في لجة ، وأحيط بها من كل جانب ، فأخرجها من هذه اللجة ، وقد وقفت ، فاجعلها سائرة جارية تصارع الأمواج، واشرح لي كيف تموت الحياة ، وتفقد حيويتها ، فإنه لا يخفى عليك شيء من هذا الكون.

ليس عندي يا رب إلا هذه الآلام التي أقاسيها ، والتي حرمت على النوم ، وسلطت عليّ الأرق ، هذه المطامع البعيدة ، والآمال الواسعة التي أربيها ، هذه الأنات التي أرسلها في ظلام الليل ، وهذه الساعات الحلوة التي أخلو فيها وأناجيك ، وهذه المجالس التي أبث فيها أشواقي وأستنزف فيها آماقي ، إن فطرتي التي فطرتني عليها ، مرآة ينعكس فيها اتجاهات العصر ، ومرتع يرتع فيه غزلان الأفكار والخواطر (١) ، وإن قلبي ساحة يتجدد فيها معارك وحروب بين جيوش الظن والتخمين ، وبين ثبات العقيدة واليقين (٢) ، هذه هي ثروتي ، التي أعتز بها في فقري ، وأدعوك يا رب أن تقسمها في

---

(١) يشير إلى ما يسنح له من أفكار جديدة ونظريات.

(٢) يشير إلى الصراع النفسي بين الفلسفة والدين والعاطفة الذي لم يزل الشاعر الحكيم يعالجه في حياته.

الشباب الإسلامي وتملكهم إياها ، فتصادف محلها وتصل إلى من هو أحق بها ، وأهلها».

وبعد أن يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها في الكثرة ، وتطورها وظهورها في مظاهر شتى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجمود ، وقوتها وسرعتها ، كل ذلك في عمق ودقة ، وهي قطعة فلسفية أدبية ، تستحق الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة وعلمائها ورواد الأدب يهيب بالشباب الإسلامي ويقول له ، وهو يعرف اندفاعه إلى المادة والشهوات ، وغرامه الشديد بالوظائف والمرتبات :

«إن الرزق الذي يفقد الأبي الكريم كرامته ، ويرزأه في حريته وشرفه سم زعاف ، إن القوت المقبول هو الذي يظل معه الرجل موفور الكرامة ، مرفوع الهامة ، ازهد في أبهة السلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بقيمتها وكرامتها ، إن السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السجدة التي تحرم عليك كل سجدة لغير الله» .

ثم يحثه على مغامرات جديدة ، وفتوح جديدة ، وتقدم دائم ، وطموح قائم ، حتى تنكشف له عوالم جديدة ، لم يحلم بها علماء الطبيعة، ولم تحدث عنها العلوم الكونية .

إن هذا الكون الذي يتركب من لون وصوت ، والذي هو خاضع لناموس الموت ، والذي تسرح فيه العين، وتتمتع فيه الأذن ، وليست الحياة فيه ـ عند أكثر الناس ـ إلا الأكل والشرب ، ليس هذا

الكون الفسيح الجميل ، هو المرحلة الأولى لمن عرف قيمته ، إنه ليس وكرك التي تستريح فيه ، والغاية التي تنتهـي إليهـا ، ليست هـذه الأرض التي مـادتهـا التـراب مصـدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملتهبة ، أنت مادة الكون، وليس الكون مادتك ، كن في تقدم دائم ، ورحلة دائمة ، وحطم هذا الجبل الأصـم الـذي يعتـرض فـي طـريقـك . وتمـرد علـى هـذا الـزمـان والمكان ، وتحرر من قيودهما ، وانطلق من حدودهما ، فإن المؤمن إذا عرف قيمة نفسه اقتنص هذا العالم، واقتنص هذه الأرض والسماء في بعض ما يقتنص» .

«إن هنالك عوالم وأكواناً ، لم تقع عليها عين بعد ، فإن ضمير الوجود لم يفرغ جعبته ، ولا يزال يأتي بجديد ، وإن هذه العوالم متشوقة لهجومك وغارتك وزحفك ، متشوقة لأبكار أفكارك وبدائع أعمالك ، إن هذا العالم يدور دورته لتنكشف عليك نفسك وحقيقتك ، أنت فاتح هذا العالم الذي يحتوي على خير وشر ، ويعجز البيان عن وصفك ، ويعجز الملائكة عن مرافقتك وعن غاياتك» .

* * *

نياحة أبي جهل

زارت روح عمرو بن هشام ـ زعيم الجاهلية والنخوة العربية ـ مكة ، وقد أصبحت بلد الإسلام والتوحيد ، وطهر بيت الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزى ، ولا أساف ، ولا نائلة [1] ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته ، خمس مرات : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله» .

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، وأصبح الناس يعتقدون أنهم من آدم ، وآدم من تراب ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، إلا بالتقوى ، وسمع الناس يتلون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [2] .

---

(١) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظمها ، راجع ابن هشام وابن الكلبي.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣ .

وأصغى إلى الناس في غدوهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلد أو نسب ، ووطن أو شعب ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعير أحداً بأمه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته أو قرشيته ، وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلة بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلة في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبد أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفون حوله، ويصدرون عن رأيه .

ودقق في حديث الناس وآدابهم وعاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعة عربية ، أو نعرة قومية ، يتعلق بها سيد بني مخزوم، ويقر عيناً ، ورأى أن الحياة القديمة قد نسخت وأبطلت ، وولد مجتمع جديد قام على أساس من العقيدة والخلق والفضيلة والتقوى ، وتغيرت الموازين والقيم ، وتغيرت عقول الناس ونفوسهم ، وسمع ينشد في حزن واستعجاب :

فما الناس بالناس الذي عهدتهم
ولا الدار بالدار التي كنت أعرف

لقد أشكلت الأمور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن البلد ، وسيد من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحجر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه

مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين ، لأنكر مكة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنه قد ضل الطريق.

لقد كان يرى في الدين «الجديد» الذي جاء به محمد ﷺ الخطر والضرر على الدين الذي قام على تقديس القومية الضيقة والعصبية القرشية ، والنظام الجاهلي الذي يقوم على النسب والوطن وتفضيل الدم والعرق ، ويرى العالم كله في حدود «المملكة القرشية» التي قامت في مكة ، ولا يعني بخارج هذه الحدود.

ويرى الفضل كله في العرب ، فغيرهم عجم وعلوج ، لا يستحقون مدحاً، ولا يستحقون رحمة ، ولا يستحقون عدلاً ، لقد كان يرى كل ذلك ويتوقعه ، وكان من أشد الناس حماسة في الدفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس فراسة في معرفة غايات الإسلام ، ولكنه على بعد نظره وذكائه ، لم يكن يعرف أن الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأن الإسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأن الجاهلية تطرد من عاصمتها ومهدها هذا الطرد الشنيع.

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورئي متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمد ﷺ وينوح ، ويقول:

«إن قلوبنا ـ معشر الجاهليين ـ قروح وجروح ، تسيل دماً مما صنع محمد ، فقد أطفأ نور الكعبة، وحط من مكانتها وقدرها ، لقد نعى قيصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسلاطين ، ونادى بأعلى

صوته: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ و﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ ، واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به وبدينه الجديد ، ساحر يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفر أعظم من قوله: «لا إله إلا الله» ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللات ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجباً! لقد جرد القلوب عن معبود مشهور يرى ويلمس (١) ، وربطها بمعبود غير مشهود لا يرى ولا يلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس؟ وهل لما لا يرى وجود؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجود لغائب؟ هل يجد الإنسان لذة وحلاوة في ركوع وسجود أمام غائب؟!.

إن دينه حتف للوطنية والقومية ، إنه من قريش ولكنه لا يفضل حراً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجمي ، يجلس مع مولاه على مائدة واحدة ويأكل معه ، أسفاً إنه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدميم ، وذل العرب ، وذل بنو قصي.

---

(١) يعني به الأصنام من الحجارة وغيرها.

إننا لا نشك في أن هذه المؤاخاة ، التي يحث عليها محمد كثيراً ، مبدأ عجمي ، وقد تحقق لدينا أن سلمان مزدكي ، وأن ابن عبد الله خدع به ، وجر البلاء والشقاء على الأمة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشمي قيمته وشرفه ، لقد أعمته هذه الصلاة التي يصليها ، هل لعجمي أصل عدناني ، وهل لأعجمي نطق عربي ولهجة مضرية؟ عجباً لعقلاء العرب! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسميه محمد وحياً ، بكلامكم البليغ الساحر.

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود! ولا تشهد بصدق ما نقول. ولماذا لا تقوم يا هبل! يا إلهنا الأكبر! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصباة ، أغر عليهم ، وعكر عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجاز نخل خاوية ، يا مناة! ويا أيها اللات! فبالله! لا ترحلا من ديارنا ، وإن رأيتما الرحيل فبالله! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بد من الرحيل ، فلا تعجلا ، وأمهلانا أياماً نتمتع بكما»[١].

* * *

---

(١) «جاويد نامه» لشاعر الإسلام محمد إقبال.

عـودة الجَاهِليـة

مر شاعر الإسلام ـ في بعض زياراته الروحية وسياحاته الفكرية ـ بواد ، اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت أصنامها وتماثيلها ، وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السدنة والكهان ، وتغنى بها الشعراء والأدباء ، وكان مجمع الآلهة القديمة من شعوب مختلفة ، وبلاد مختلفة ، وعصور مختلفة ، فهذا إله المصريين القدماء ، وهذا رب التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية ، وأولئك آلهة وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك رب الفراق ، هذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .

ثم إنهم أشكال وألوان ، فهذا قد سل السيف بيده ، وهذا تقلد حية ولواها حول عنقه ، وكلهم وجلون مشفقون من الوحي المحمدي ، الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ولد العالم الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ، وكلهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارة مفاجئة سر بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان «مردوخ» أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحب بالإنسان القادم وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوتي! فإن إنساناً فر من الله ، وثار على الأديان السماوية ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسع في العلم والنظر ، وجاء يتمتع بالآثار العتيقة ، ويتحدث عن مجدنا ، إنها بارقة أمل لاحت بعد مدة ، ونفحة هبت من أرض حكمناها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً.

وكان بعل ـ إله الفينيقيين والكنعانيين القديم ـ أول من اهتز لهذه الزيارة ، فأنشأ يغني في طرب ومرح ويقول: «إن الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنح له ثم تغيب ، كالأمواج ترتفع ثم تتوارى ، إنه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود.

حيا الله الإفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام! هذه الفرصة الذهبية ، التي أتاحها لنا الدهاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذته.

إنهم صحبوا الغربيين مدة من الزمان ، وعاشوا معهم ، ففقدوا

ثروتهم ، وضيعوا ذلك الدين الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بعث فيهم الإيمان واليقين.

إن الرجل المؤمن الحر الذي لم يكن يعرف الحدود والجهات ، ولا يعبد غير الإله الواحد الذي خلق السموات والأرض ، أصبح يؤمن بالوطن ويقدسه ويعبده ، ويقاتل في سبيله ويكفر بالله ، ويهجره ويتناساه.

لقد خضع المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبح شيوخهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلدون شعارهم ، ويقتفون آثارهم ، فلنستبشر ولننتهز هذه الفرصة.

لقد عاد إلينا الشباب ، وحق لنا أن نطرب ، فقد انهزم الدين ، وانتصرت الوطنية والجنسية ، إن المصباح الذي أناره محمد ، تألب عليه مئة «أبي لهب» يطفئونه ، إننا لا نزال نسمع صوت لا إله إلا الله ، ولكنه صوت يصدر عن الشفتين ولا يصدر عن القلب ، وكل ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم.

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشر والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدين الإلهي مهدداً ، فطوبى لنا ولإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلوات والمغارات.

لقد كان عبادنا أحراراً ، لهم التصرف المطلق ، والحرية الكاملة في حياتهم ، لم نثقلهم بعبادة وطاعة ، وإنما طلبنا منهم

ركعة لا سجود فيها ، وقد أثرنا فيهم العاطفة الدينية ، بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتهم إلا مكاء وتصدية ، ونغمة وأغنية وأي لذة في صلاة لا غناء فيها ولا موسيقا؟!

إن الناس لا بد يفضلون عبادة طاغوت مشهود ، على عبادة إله غائب ، ورب لا يرى بالأبصار» [١].

* * *

(١) من ديوان «جاويد نامه».

ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربيه الروحي والفكري ـ الشيخ جلال الدين الرومي ـ في سياحة روحية فكرية ، ومر في جولته ـ الخيالية ـ بمنازل كثيرة ، التقى فيها بشخصيات ماضية ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرجالات ، وتحدث معهم في مسائل كثيرة [١] .

ومر في رحلته بمنزل بكر ، لم يطأه آدمي بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثلت فيه الدنيا بسهولها وجبالها وميادينها وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عزلة من المدنية والصناعة الإنسانية ، وأعجب الشاعر جمال الطبيعة ورقة الهواء وخرير الماء في هدوء الصحراء .

وأقبل إلى شيخه الرومي ، فقال وقد قرع أذنه صوت عذب رقيق : ما لي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان؟ فهل أنا واهم ، أم حالم؟

---

(١) وفي ديوانه «جاويد نامه» قصة هذه الرحلة .

قال الرومي: إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسب قريب ، فقد قضى فيه أبونا آدم يوماً أو يومين ، لما هبط من الجنة ، قد شهد هذا المكان زفراته وأناته في السحر ، وبلت دموعه التراب ، يزوره أصحاب المقامات الرفيعة كفضيل وأبي سعيد ، والعارفون الكبار كجنيد وأبي يزيد ، فلنقم ولنسرع لندرك الصلاة في هذه البقعة المباركة ، وننال لذة الروح ونعمة الخشوع التي حرمناها في العالم المادي.

ونهضا من مكانهما مسرعين فوجدا رجلَيْن يصليان ، أحدهما أفغاني والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغاني يصلي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الرومي: إن الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضل منهما ، وقد حلا كثيراً من عقدي وألغازي ، أما الإمام السيد جمال الدين ، فقد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودبت بدعوته الثائرة الحياة في الأموات والجمادات ، وأما الزعيم سعيد حليم فقد جمع بين القلب الجريح الدامي ، والفكر المحلق السامي ، والروح القلقة ، والعقل الكبير المستنير ، إن ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات.

وقرأ السيد جمال الدين سورة «والنجم» فأنشأ هدوء المكان والزمان ، وشخصية الإمام ، وجمال القرآن ، جواً خاشعاً رهيباً رق فيه القلب وفاضت فيه العين ، وكانت قراءة لو سمعها إبراهيم

الخليل لأعجب بها، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءة تقلق النفوس وتذيب القلوب ، وتعلو بها صيحة التكبير والتهليل في القبور ، وكانت قراءة ترفع الحجاب ، وتتضح بها معاني أم الكتاب.

وندع محمد إقبال يحكي قصته ، قال: «وقمت بعد الصلاة ، وقبلت يده في أدب ومحبة وقد قدمني أستاذنا الرومي إلى السيد ، وقال: إنه جوال جواب في الآفاق ، لا يستقر في مكان ، ويحمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ولم يخضع لأحد ، فيعيش حراً طليقاً».

وأقبل على السيد جمال الدين ، فقال: حدثني يا عزيزي! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بنور الله.

قلت: يا سيدي! لقد رأيت في ضمير الأمة التي خلقت لتسخير العالم معركة حامية ، وصراعاً دامياً بين الدين والوطن ، لقد ضعف الإيمان في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأمل من سيطرة الدين وسيادته ، فلجأت إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراك والإيرانيون سكارى بصهباء أوربا ونشوتها ، وأصبحوا فريسة كيدها ودهائها ، أصبح الشرق خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعية ببهجة الدين وبهاء الملة.

سمع الأفغاني كل ذلك في صبر وأناة ، وفي تألم وحزن ، ثم انفجر قائلاً: إن الباقعة الأوربي هو الذي علم أهل الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزال يبحث عن مركز لجميع الشعوب والأوطان، ولكنه بذر في الشرق بذور الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصر والشام والعراق ، فتحرر أيها المسلم الشرقي! من قيود الوطنية والقومية ، وكن «عالمياً آفاقياً» يعتبر كل بلد وطنه ، وكل أرض أرضه ، إن كنت تميز بين «الجميل» و«القبيح» فلا تربط نفسك وقلبك بالتراب والحجارة والقرميد ، إن الدين هو أن ينهض الإنسان من الحضيض ، ويعرف قيمة نفسه ، إن الذي عرف «الله» وآمن به ، لم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات ، إن الحشيش ينبت على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكن النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب ، إن آدم ولو خلق من ماء وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين، إن جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة ، إن الروح لا تنحصر في الجهات ، وإن «الحر» لا يعرف القيود والحدود ، فإذا جس في «التراب»[1] اضطرب وثار ، لأن الصقور لا تستريح ولا تهدأ في الأوكار.

إن هذه الحفنة من التراب ، التي نسميها «الوطن» ونطلق عليها

---

(١) يعني به «الوطن».

أسماء «مصر» و«إيران» و«اليمن» ، بينها وبين أهلها نسب ، لأن هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها وتنحصر في حدود أرضها أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث أن تتحرر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه ، إن فطرتها بريئة من الشرق والغرب ، وإن كان مولدها وظهورها في الشرق.

أما الشيوعية يا عزيزي! فإن مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحق بالباطل ، وآمن قلبه وكفر عقله ، إن الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في «المعدة» ، إن الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا «بالمعدة والبطن» ، وديانة «ماركس» مؤسسة على مساواة البطون ، إن الإخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنما تقوم على محبة القلوب وألفة النفوس.

إن الملوكية سمن يطرأ على الجسم ، صدرها مظلم خاو ، ليس فيها قلب خفاق ، إنها كالنحلة تجلس على كل زهرة ، وتتشرب منها الرضاب ، وتغادرها إلى زهرة أخرى ، وتبقى هذه الزهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنها أوراق بالية وحشائش ذاوية ، كذلك الملوكية تستحوذ على الشعوب والأفراد ، وتمتص منها

دماءها ، وتتركها أجساداً هامدة .

إن «الملوكية» و«الشيوعية» تلتقيان على الشره والنهامة ، والقلق والسآمة ، والجهل بالله والخداع للإنسانية ، الحياة عند الشيوعية «خروج» [١] ، وعند الملوكية «خراج» ، والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورة الزجاج ، إن الشيوعية تقضي على العلم والدين والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادة وجسمهما قوي ناضر ، وقلبهما مظلم فاجر .

ألا ! من يبلغ «روسيا» أن القرآن وتعاليمه في واد والمسلمين في واد ، لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلتهم عن النبي محمد ﷺ ، إن المسلم اليوم لا يؤسس حياته ، ولا ينظم مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لـذلك في الدين والدنيـا ، لقـد ثـل عشر قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربع عليه، واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغير نظره إلى الحياة ، وتغير منهج تفكيره .

لقد حطمت «القيصرية والكسروية» مثل المسلمين في العصر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الروسية! من تاريخنا ، عليك بالثبات

---

(١) يعني تجرد من العقائد، والعواطف،والآداب، والحضارات.

والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنام «الملوكية والوطنية» فلا تعودي إليها ، ولا تطوفي حولها مرة ثانية ، إن العالم اليوم يطلب أمة تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدة ، فاقتبسي من الشرق ديانته وروحانيته ، لقد أصبحت ديانات الإفرنج ودساتيرهم عتيقة بالية ، فلا تعودي إليها مرة ثانية ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي «لا إله» فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات «إلا الله» ، وهكذا تكملين مهمتك ، وتتمين رحلتك العظيمة ، إنك تبحثين عن نظام للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساس محكم ، وليس هو إلا الدين والعقيدة.

لقد محوت يا روسيا! أساطير الأولين أسطورة أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورة سورة ، وما أدراك ما القرآن؟ إنه نعي للملوكية والسخرة ، وحتف للاكتناز والأثرة ، وحياة للصعلوك ، وبشرى للمملوك ، إنه يذم الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ويحث على إنفاق كل ما فضل عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [1] ، إنه يحرم الربا ، ويحل البيع ، ويحث على القرض الحسن ، وهل يتولد من الربا إلا الشرور والفتن ، والقساوة

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

والضراوة؟ إن اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكل ما في الدنيا ملك لله تعالى ، ومتاع للعبد ، والإنسان أمين في مال الله ، ووصي على أرضه وخلقه﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [١] ، لقد انتكست راية الحق بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدن بظلمهم وعبثهم ، إن المبدأ الذي يقرره القرآن : أن قوت بني آدم من مائدة واحدة ، وأن الأسرة الإنسانية كلها كنفس واحدة [٢] .

إنه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان ، أقول لك ما أؤمن به وأدين : إنه ليس بكتاب فحسب ، إنه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب تغير الإنسان ، وإذا تغير الإنسان تغير العالم. إنه ظاهر ومستتر ، كتاب حي خالد ناطق ، إنه يحتوي على جدود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية.

لقد ابتكرت تشريعاً جديداً ودستوراً جديداً ، فجدير بك أن تنظري إلى العالم بنور القرآن نظراً جديداً» [٣] .

* * *

---

(١) سورة الحديد، الآية : ٧ .
(٢) ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (سورة لقمان الآية : ٢٨ .
(٣) «جاويد نامه» فلك عطارد باختصار واقتباس.

في مدينة الرسول ﷺ

لقد عاش الدكتور محمد إقبال شاعر الإسلام وفيلسوف العصر ـ مدة حياته ـ في حب النبي ﷺ ، والأشواق إلى مدينته ، وتغنى بهما في شعره الخالد ، وقد طفحت الكأس في آخر حياته ، فكان كلما ذكرت المدينة فاضت عيناه وانهمرت الدموع ، ولم يقدر له الحج ، وزيارة الرسول ﷺ بجسمه الضعيف ، الذي كان من زمان يعاني الأمراض والأسقام ، ولكنه رحل إلى الحجاز بخياله القوي ، وشعره الخصب العذب ، وقلبه الولوع الحنون ، وحلق في أجواء الحجاز ، وتحدث إلى الرسول الأعظم ﷺ بما شاء قلبه وحبه ، وإخلاصه ووفاؤه [١] وتحدث إليه عن نفسه ، وعن عصره ، وعن أمته ، وعن مجتمعه ، وقد فاضت في هذا الحديث قريحة الشاعر ، وانفجرت المعاني والحقائق التي كان الشاعر يغالبها ويمسك بزمامها ، وينتظر فرصة إطلاقها ، وقد رأى أن فرصتها قد حانت ، وهذا أوانها ومكانها ، فخاطب نفسه بقول الشاعر :

---

(١) ليس هذا الحديث من الاستعانة في شيء ، إنما هو أسلوب من أساليب الشعر والحب، استعمله شعراء إيران والهند قديماً وحديثاً.

حمامة جرعى دومة الجندل اسجعي
فـأنـت بمـرأى مـن سعـاد ومسمـع

فكان شعره في النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه من أبلغ أشعاره وأقواها ، وكان حشاشة نفسه ، وعصارة عمله وتجاربه ، وكان تصويراً لعصره، وتقريراً عن أمته ، وتعبيراً عن عواطفه.

لقد قال محمد إقبال هذه الأبيات، وهو يتخيل أنه مسافر إلى مكة والمدينة ـ شرفهما الله ـ يهوي به العيس ، ويسير به الركب على رمال وعساء ، يتخيل بشدة شوقه وحبه ، أنها أنعم من الحرير، وإن كل ذرة من ذراتها قلب يخفق ، فيطلب من السائق أن يمشي رويداً ويرفق بهذه القلوب الخفاقة ، ويحدو الحادي بما لا يفهمه ، فتثور أشجانه ، وتترنح أعطافه ، وتهيج شاعريته ، وتنطلق قيثارته بشعر رقيق بليغ.

ثم يسعد بالمثول بين يدي الرسول فيصلي ويسلم عليه بما يفتح الله به عليه ، وينتهز الفرصة ، فيحدثه عن نفسه ، وبلاده ، والفترة التي يعيش فيها ، وعن أمته ، وعن الأزمات ، والمشكلات التي تعانيها ، وما فعل بها الزمان وطوارق الحدثان ، وما فعلت بها هذه الحضارة الغربية ، والفلسفات المادية ، وما فعلت برسالتها والأمانة التي حملتها ، وأين هي من ماضيها وخصائصها ، يرثي لها تارة ويبكي ، ويشكوها مرة ويعاتب ، ويشكو غربته في وطنه ، ووحدته في مجتمعه ، وضيعة رسالته في أمته ، وقد سمى هذه

المجموعة «بهدية الحجاز» ، كأنها هدية حملها من الحجاز لأصدقائه وتلاميذه ، ولا شك أنها هدية مباركة للعالم الإسلامي ، ونفحة فائحة من نفحات الحجاز.

يقوم الشاعر بهذه الرحلة الحبيبة، وقد أربى على الستين ووهنت قواه ، في سن يفضل فيها الناس الراحة والإقامة ، فما باله يسافر وهو شيخ، وقد أضعفه المرض والشيب؟ والسفر إلى الحجاز شاق مضن ، وقد نصحه الأطباء ، والأحبة بالراحة و الهدوء ، ولكنه يعصيهم ويطيع أمر الحب ، ويلبي منادي الشوق ويقول :

«لقد توجهت إلى المدينة رغم شيبي وكبر سني ، أغني وأنشد الأبيات في سرور وحنين ، ولا عجب فإن الطائر يطير في الصحراء طول نهاره ، فإذا أدبر النهار ، وأقبل الليل رفرف بجناحيه ، وقصد وكره ليأوي إليه ، ويبيت فيه» .

كأنه يقول لماذا تعجبون إذا قصدت المدينة ـ وهي وكر طائر الروح ومأوى المؤمن ـ في أصيل حياتي ، وفي سن أشرفت فيها شمس الحياة على الغروب ، أما رأيتم الطائر إذا جن الليل أسرع إلى وكره؟! .

بدأ محمد إقبال سفره ، وهو شيخ مريض ، وسارت به الناقة بين مكة والمدينة سيراً حثيثاً ، وقد قال لها : «رويدك يا حبيبتي! فإن راكبك لاغب ، ومريض ، وكبير السن ، فمشت في نشوة وطرب ولم تبال ، كأن الصحراء حرير تحت أرجلها» .

يسير الشاعر في هذا الركب الحجازي الذي يحدو بالصلاة على النبي ﷺ: ويريد الشاعر أن يسجد سجدة على هذه الرمضاء ، يدوم أثرها في جبهته طول حياته ، ويقترح ذلك على أصحابه وزملائه .

ويملكه الشوق ، فيحدو ، وينشد أبياتاً من شعر العراقي [١] والجامي[١] فيتساءل الناس: من هذا الأعجمي الذي يغني ويحدو بلغة لا نفهمها ، ولكنها نغمة تشجي القلوب وتملؤها إيماناً وحناناً ، حتى يذهل الرجل في هذه الصحراء عن الغذاء والماء؟!

ويلذ الشاعر بكل ما يعتريه في الطريق ، من سهر وعناء ، وقلة طعام وشراب ، ولا يستطيل الطريق ولا يستبطىء الوصـول ، بـل يقتـرح على سـائقه أن يـأخذ طريقاً أطول ، حتى يعيش في هذه الأشواق ، وفي هذا الحنين مدة أوسع ، وتشتد لوعة الفراق لأنها زاد العشاق ونزهة المشتاق.

وهكذا يطوي محمد إقبال هذه المسافة ، في سرور وحنين ، حتى يصل إلى المدينة ، فيقول لزميله: تعال يا صديقي! نبك سروراً ونتحدث ساعة ، ونرسل النفس على سجيتها فإن لنا شأناً مع هذا الحبيب ، الذي أسعدنا به الحظ ، بعد طول فراق وشدة اشتياق.

ويقبل على نفسه ، فيتعجب كيف اختص من بين أقرانه بهذه السعادة، ثم يقول: «لا عجب فإن المحبين المتيمين أكرم هنا من

(١) شاعران فارسيان ، لهما قصائد وأبيات سائرة في الآفاق في مدح النبي ﷺ.

الحكماء المتفلسفين ، يا سعادة الجد ، ويا حسن الطالع!! لقد سمح لصعلوك مملوك أن يدخل على السلاطين والملوك» .

ولا يلبث محمد إقبال ـ وهو في هذا الفيض من السرور والسعادة ـ أن يذكر أمته المسلمة ، والشعب المسلم الهندي ، يذكر آلامهما وآمالهما ، فيذكر كل ذلك في بلاغة الشاعر ، وحقيقة الرائد ، وما أجملهما إذا التقيا ، يقول :

«إن هذا المسلم البائس ، الذي لا تزال فيه بقية من شمم وإباء ، وأنفة الملوك وعزة الآباء ، لقد فقد مع الأيام ، يا رسول الله! لوعة القلب وإكسير الحب؟إن قلبه حزين منكسر لا يعرف سر ذلك» .

«بماذا أحدثك يا رسول الله! عن آلامه ورزيئته ، حسبك أنه هوى من قمة عالية ، إنه هبط من تلك العلياء التي وصلت به إليها ، وكل ما ارتفع المكان الذي يسقط منه الإنسان كان ألمه شديداً وكانت الصدمة عظيمة ، فلطف الله بهذه الأمة المنكوبة ، الهاوية من قمة المجد العالية» .

«إنه لا يزال الزمان يعاديه ، ولا يزال ركبه تائهاً في الصحراء ، بعيداً عن غايته ومنزله، حسبك من هذه الأمة ، وما يسود فيها من الفوضى والاضطراب ، إنها تعيش من غير إمام» .

«إن غمده فارغ ككيسه ، فهو أعزل فقير ، وإن الكتاب ، الذي فتح به العالم ، وضعه في بيته الخرب ، على طاق تراكمت عليه

الأتربة ، ونسج عليه العنكبوت» .

«إنه أصبح ، بطول عهده بالمغامرات والبطولات ، لا يفهم لغة المغامرين ، وإهابة الشجعان المجاهدين، وقد ألف نغمة المغنين ، وعاش بين الزفرات والأنين» .

وإن عينه فقدت النور ، وإن قلبه حرم السرور. إن رزيئته أنه يعيش ولا يعرف لذة الوصال والحضور» .

ثم يذكر الفرق بين ماضيه العظيم ، الذي كان فيه موضع رعاية وعناية واحتفاء ، وحاضره القاسي الكالح ، وكيف صعب عليه أن يتقشف ، ويعتمد على نفسه ، ويكدح في الحياة ، وما أبلغ قوله : «إنه طائر مدلل ، كنت تطعمه بيدك ، وقد ربيته بالفواكه ، فشق عليه البحث عن رزقه وقوته في الصحراء» .

ويتذكر محمد إقبال فتنة اللادينية التي توجهت إلى العالم الإسلامي ، ويعرف محمد إقبال ـ وهو من كبار علماء الفلسفة والسياسة وعلم الاقتصاد ـ أن سببها النظر المادي البحت ، وخواء الروح ، وبرودة القلب ، وباعثها هو الحياة المترفة الباذخة التي يعيشها كثير من الناس .

ويعتقد أنه لا سبيل إلى محاربة هذه اللادينية ، والفلسفة الاقتصادية المادية ، إلا الحياة التي تقوم على الحب والزهد ، والحياة التي كان يعيشها أبو بكر الصديق ، المحب الزاهد ، فيتمنى للمسلمين هذه الحياة المثالية التي يسيطر عليها الحب والزهد . وإذا

وجدت هذه الحياة اضطر الناس إلى تقديرها وإجلالها .

إنه لا يعلل انحطاط المسلمين بالفقر ، والضعف في المادة ، بل يعلله بانطفاء تلك الشعلة التي التهبت في صدورهم ، ويقول : «إن أولئك الفقراء ـ المسلمين الأولين ـ لما عرفوا كيف يقومون أمام ربهم في صف واحد ، استطاعوا أن يمسكوا بتلابيب الملوك ، ولما انطفأت هذه الجذوة في صدورهم انطووا على نفوسهم ، وأووا إلى الزوايا والتكايا» .

إنه يستعرض تاريخ المسلمين ، فيرى فيه ما يخجل كل مسلم ، يرى فيه ما لا يتفق مع الرسالة المحمدية وتعاليمها ومثلها العليا ، ويرى فيه من شرك وعبادة لغير الله ، وخضوع للجبابرة والطغاة ، ما يتندى له الجبين حياء ، يذكر «إقبال» ذلك كله ويطرق رأسه حياءً وخجلاً ، ويقول في صراحة واعتراف ، وبلاغة وإيجاز : «إن جملة القول ، ما كنا جديرين بك يا رسول الله» .

ويلقي نظرة على العالم الإسلامي ، وقد جال في أنحائه ، وعرف مراكزه ، فيشكو ضعفه وفقره المعنوي ويقول في إجمال : «إن المراكز الروحية (الرباطات والزوايا) أصبحت فقيرة لا تملك غذاء القلب ولا تحمل رسالة الحب ، والمراكز العلمية (المدارس بمعناها الواسع) ، طغى عليها التقليد ، فهي تردد ما تلقته في العام الماضي، في غير إبداع وابتكار، وهي كثور الطاحون يدور في دائرة واحدة ، أما أندية الشعر والأدب ، فقد خرجت منها كئيباً حزيناً ،

فليس في نغماتها وأفكارها ما يبعث الروح ويثير الطموح ، إنه شعر بارد ، يخرج من قلب بارد ، وأدب ميت يصدر عن أديب ميت» .

ويقول: «قد ضربت في مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدت المدن تغص بالمسلمين الذين يفرقون من الموت ، أما المسلم الذي يفرق منه الموت ، فلم أر له عيناً ولا أثراً» .

ويذكر السر في ضعف المسلمين، وتشتت أهوائهم وخمودهم، فيقول: «لقد شق على ما أراه من سوء حال المسلمين يوماً ، وشكوت إلى ربي ، فقيل: «ألا تعرف أن هؤلاء يحملون القلوب ، ولا يعرفون المحبوب؟»! يعني أنهم يملكون مادة الحب ، ولكنهم لا يعرفون من يشغلونها به ، ويوجهونها إليه ، فقلوبهم تائهة ، وعقولهم مضطربة ، وجهدهم ضائع ، وعملهم ضعيف ، وحياتهم لا لذة فيها ولا سرور» .

وهي حياة من رزق القلب وحرم الحب ، أو حياة من عرف الحب ، وجهل المحبوب ، إنها لا شك ، حياة عذاب وشقاء ، وحياة حيرة وضلال .

ولكنه رغم ذلك كله غير يائس من المسلمين ، وغير قانط من رحمة الله ، بل ينتقد رجال الدين في يأسهم من المسلمين ، وقطعهم الرجاء من نهضتهم ، وتعليقهم الأمل بغيرهم ، ويقول في عتاب وتألم: «إن أحوالهم وأحاديثهم تنم عن أنهم يائسون من جميع أسباب الخير ، وأنهم متشائمون ، ينظرون إلى المسلمين ،

وإلى الحياة بمنظار أسود ، ويقول: «إن المسلم ، وإن كان قد تجرد عن أبهة الملك والسلطان ، ولكن ضميره وتفكيره ، لا يزالان ضمير الملوك وتفكيرهم ، وأنه إن قدر له أن يعود إلى مركزه ، كان جماله جلالاً ، وكانت له سطوة لا تطاق».

وهنا يقبل محمد إقبال إلى نفسه ، فيحكي حكايتها ، ويشكو ما يعانيه من أهل عصره ومجتمعه ، يقول: «إني أستحق العطف والعناية ، فإني في صراع عنيف ، وحرب دامية ، مع عصري المادي».

ولا شك أن إقبال قضى حياته في صراع مع العصر الحاضر ، وقد كفر بالحضارة الغربية والفلسفة المادية ، وتحداهما وانتقدهما ، وزيفهما في شجاعة وعلى بصيرة وخبرة ، وقد كان مربي جيل جديد ، مؤمناً بالله ، واثقاً بنفسه معتداً بشخصيته وشخصية الإسلام ، كافراً بالأسس المادية والتفكير المادي ، الذي قامت عليه الحضارة الغربية ، وحق له أن يقول:

«لقد أذنت في الحرم ، كما أذن بالأمس جلال الدين الرومي ، فقد تعلمت منه أسرار الروح والحب ، لقد كان ثائراً على فتن عصره ، وكنت ثائراً على فتن عصري».

ويذكر تمرده على العلوم الغربية ، وتفلته من شباكها واحتفاظه بعقيدته وإيمانه وخصائصه ، ويقول بحق وجدارة : «كنت كطائر يقع على شبكة ، فيقرض الحبال ، ويأخذ الحب ويطير بسلام» ، وكذلك كان ، فقد ظفر بلب العلوم الغربية ولبابها ، ورمى

بقشورها ، وخرج من حبائلها سالماً .

ثم يقول في افتخار واعتزاز : «يعلم الله! أني دخلت في أعماق هذه العلوم واكتويت بنارها ، من غير أن أرزأ في عقيدتي ، وخلقي ، وصلتي بك ، وقد جلست في نارها بشجاعة وخرجت منها بسلامة ، كما كان شأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع نار نمرود» .

وهنا يتذكر الشاعر حياته التي قضاها في عواصم أوربا ، بين الكتب الجافة ، والفلسفة الدقيقة ، والعلم الواسع ، والجمال الفاتن ، والمظاهر الخلابة فيقول : «لقد بقيت هذه المدة ذاهلاً عن نفسي ، جاهلاً لشخصيتي ، حتى لما وقع بصري علي لم أعرف نفسي» .

ويقول : «لقد اقتطفت من علوم الغرب شيئاً كثيراً ، وتناولت من خمر حانته كأساً دهاقاً ، ياله من صداع اشتريته ، لقد عشت بين علمائه وفلاسفته ، وبين غيده الحسان ، يا لها من فترة مظلمة قضيتها من حياتي! حرمت فيها لذة الحب ونعيم القلب . إن دروس الحكماء قد صدعت رأسي وكدرت بالي ، ذلك لأني نشأت في حضانة الحب والإيمان ، فلا يناسبني ولا يملأ فراغ نفسي إلا العاطفة والحنان» ، وهنا يقبل الشاعر إلى الطبقة التي تمثل العلم والدين ، فينتقد فيها الجفاف ، واتساع العلم وتضخمه على حساب العاطفة والحب ولوعة القلب ، فيقول : «إن العالم الديني لا يحمل هماً ، إن عينه بصيرة ، ولكنها جافة لا تدمع ، لقد زهدت في صحبته لأنه علم ولا هم ، وأرض مقدسة ولا زمزم» .

لقد شبهه محمد إقبال بالحجاز ، لأنه يحمل علماً كثيراً ، وعقلاً كبيراً ، ولكنه مع الأسف رمال جافة ، وجبال جرداء ليس فيها زمزم ، ومكة ببيتها وزمزمها ، ليست برمالها وبطحائها وجبالها فحسب ، فما أفقر العالم الديني الذي يحمل علماً جماً، ولساناً بليغاً ، وعقلاً مستنيراً ، ولا يحمل دمعة في عينه ، ولا لوعة في قلبه ، إنه أخذ من الأرض المقدسة خشونتها وصلابتها ، ولم يأخذ منها رطوبتها ونداها.

ثم يحكي عن نفسه ، ويقول: «إنني لم أبع نفسي وضميري لأحد ، ولم أستعن بأحد في حل مشكلاتي ، ذلك لأني اتكلت على غير الله مرة واحدة ، فسقطت عن مقامي ، وعوقبت بالهوان مئتي مرة».

ويندفع يشكو عصره ومجتمعه في حزن وألم ، فيقول: «إني أحترق بنار شوقي وحبي وأستغرب أني خلقت في عصر لا يعرف الإخلاص ، ولا يعرف سوى المادة والأغراض ، في عصر لم يعرف لوعة العقل ، ولم يذق الحب ، أنا غريب في الشرق والغرب ، أعيش وحدي ، وأغني وحدي ، وقد أتحدث إلى نفسي، وأخفف من أشجاني وآلامي».

ويقول: «إن إخواني لم يعملوا بما قلت لهم ، إنهم لم يجنوا الرطب من نخل شعري ، إليك أشكو يا سيد الأمم! من أناس لا ينظرون إلي إلا كشاعر أو متغزل.

لقد أمرتني يا رسول الله! أن أبلغ إليهم رسالة الحياة والخلود ، وأنشدهم بما ينفخ فيهم النشاط والروح ، ولكن هؤلاء القساة يقترحون عليَّ أن أنوح الأموات في الشعر ، وأنظم تاريخ الوفاة ، فأين هذا مما أمرتني به» .

ويشكو في توجع وحزن عميق ، زهد أبناء عصره في العلم الذي كان يحمله ، والرسالة التي يقوم بها في شعره ، ويقول : «عرضت قلبي عسى أن يستأسره أحد ، فلم أر فيه راغباً ولا له طالباً ، وأبحتُ ثروتي ، وما يحويه صدري فلم أر لها مقدراً ، فليعمر حبك قلبي ، وليشغل حديثك لساني ، فإني لا أجد في العالم من هو أشد وحدة وأعظم غربة مني» .

ويختم قصيدته بأبيات يوجهها إلى المرحوم الملك عبد العزيز بن سعود ـ باعتباره ملك الحجاز في عهده وهو خطاب موجه إلى جميع ملوك العرب ، وزعمائهم ، وعظمائهم ـ يحذره من الاستعانة بالأجانب ، والدول الأوربية ، ويدعوه إلى الاعتماد على الله ، ثم على ما عنده ، يقول : «اضرب خيمتك حيث شئت في الصحراء ولتكن خيمتك قائمة على عمدك وأطنابك ، ولا تنس أن استعارة الأطناب من الأجانب حرام» .

* * *

شكوى وَمُناجَاة[1]

كان محمد إقبال كثير الاعتداد بالإيمان ، شديد الاعتماد عليه ، يعتقد أنه هو قوته وميزته ، وذخره وثروته ، وأن أعظم مقدار من العلم والعقل ، وأكبر كمية من المعلومات والمحفوظات ، لا تساوي هذا الإيمان البسيط ، يقول في بيت :

«إن الفقير المتمرد على المجتمع ـ يشير إلى نفسه ـ لا يملك إلا كلمتين صغيرتين ، قد تغلغلتا في أحشائه ، وملكتا عليه فكره وعقيدته ، هما : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ، وهنالك علماء وفقهاء ، الواحد منهم يملك ثروة ضخمة من كلمات اللغة الحجازية ، ولكنه قارون لا ينتفع بكنوزه» .

وكان شديد الغيرة على اعتزائه إلى هذه الرسالة وإلى هذه الشخصية العظيمة ، فكان يأبى أن يتطفل على مائدة أجنبية ، أو أن يروي غلته من معين غريب يقول : «رفقاً يا رسول الله بفقير غيور أبي النفس ، رفض أن يملأ كوبه من نهر الأجانب» .

---

(١) ملتقط من كتاب «الطريق إلى المدينة» للمؤلف ، تحت عنوان «شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم»، ص ١٣٥ـ١٤٣ .

وجاشت نفسه الكبيرة الدافقة بالحنان والإيمان ، في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليل رهين الفراش في بهو بال (الهند) ، وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي ، والفراغ الفكري والروحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد المتهور إلى الفكرة الغربية ومثلها وقيمها ، وتخليه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعر من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدث فيه إلى النبي ﷺ ، وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلامي وفقره الروحي وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتور بعد النشاط ، ومن ضعف في العلم ، يقول:

«أشكو إليك يا رسول الله! هذه الأمة التي تسلط عليها خوف الموت، إنك حطمت الأصنام القديمة كاللات ومناة، وجددت العالم القديم ، الذي سرى فيه الهرم ، ودب فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان والحنان، والتسبيح والأذان، ويستمد من الشهادة التي لقنته إياها الانتباه والحضور، والنور والسرور.

إننا ـ وإن ولدنا في بلاد عريقة في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهان والسدنة ، فلم نخر بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نطف حول بلاط الملوك وقصور الأمراء. والفضل في كل ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السفرة التي بسطتها للعالم ،

وقد ظل حديثك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبية في الفقر عفيفة في الحاجة، ولكن العالم الإسلامي اليوم ، قد فقد الشيء الكثير من قوته وقيمته.

لقد تجولت في ربوع العالم الإسلامي ، وزرت بلاد العرب وديار العجم ، فرأيت من يقتدي بك ، ويجدد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ويحكيه ، كثيراً يوجد في كل مكان ، إن الشباب الإسلامي قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم ، إنهم في شبابهم ناعمون رقاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنهم نشؤوا على العبودية، ودرج على ذلك جيل بعد جيل، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ولا يطيقونها.

إن نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنهم هاموا بالغرب وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدق عليهم الغرب بكسرة خبز أو حفنة شعير ، إنهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمة حقيرة ، فأصبحت الصقور التي تحلق في السماء ، عصافير صغيرة لا شأن لها بالأجواء الفسيحة والمرامي البعيدة.

إن أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مزجاة ، لم يخبروه بمركزه ومنصبه ، إن نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذا الجحيم

ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سر الموت ولذته ، ولا يؤمن كما كان يؤمن في القديم بأنه «لا غالب إلا الله» ، لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكر إلا في المنام والطعام ، إنه حكم الغرب في نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منة مئة إنسان من أجل بطن واحد ، إن محطم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح «آزر» ينحت الأصنام ، إنه يشتري من الإفرنج أصنامهم الجديدة .

إن هذا الجيل قد أصبح في حاجة إلى بعث جديد ، وإلى أن نقول له مرة ثانية ، قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيون أن يقتلونا من غير حرب وضرب ، لقد استطاعت أمتك وأصحابك ، أن يثلوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من جديد ثائراً جديداً ، يؤمن بالله ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسم هذه الحضارة ويبطل سحرها .

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم! بالله اقبض العنان ، وقف بي لحظة ، أبث إليك بالأشجان والأحزان ، قد تلجلج لساني وخانني البيان ، إنني في صراع بين سلطان الشوق وسلطان الأدب ، إن الشوق يقول لي : تشجع وتكلم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، الأدب يقول : إياك والفضول ، فافتح العينين وأطبق الشفتين ، ولكن الشوق عصي ثائر ، لا يخضع للأدب ، إنني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زهد فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ، ولأمر ما تراميت

في أحضانك ، إن صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإن اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإن أنفاسي قد تجردت من لوعة القلب ولهيب الصدور ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إن الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر كالعاني الأسير؟ إنه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يالها من علل يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها ، إلا أن تنظر إلي من طرف خفي ، إن هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإن شامتي اللطيفة لا تحتمل مرارتها ورائحتها ، فأنا مريض لا يرجع فيه إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ، إذا جرعوا الدواء المر ، وأنا أخادع نفسي ، فأمزجه بالحلاوة حتى تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إلى ذلك اليوم الذي فقدته ، إن العصاة من أمتك أسعد بشفاعتك ، وأكثر حظاً من عطفك من غيرهم ، كالأم الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنني مع عباد الليل والظلام في صراع شديد ، فمد سراجي بمدود من الزيت من جديد ، إن وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً وريعاً ، فلا تضن علي بشعاع من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إن قيمة الجسم بالروح ، وإن قيمة الروح هو إشراق من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إن مهمتي أصعب وأدق من مهمة «فرهاد» الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل صلد أصم ، فأنا في حاجة إلى آلات أحد ، وقوى أشد ، حتى أتم مهمتي ، وأحقق رغبتي ، إنني مؤمن لا أكفر بشخصيتي ومواهبي فضعني على المسن ، فإنني حديد من معدن كريم .

إنني وإن كنت قد ضيعت شبابي ، وأتلفت حياتي ، ولكن أملك شيئاً اسمه «القلب»، إنني أغار عليه وأستره من العيون لأنه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل ، إن العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا ، إنما يتسلى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً .

يا من منح الكردي لوعة العرب ، اسمح للهندي أن يمثل بين يديك ، ويتحدث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحة ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاؤه ما يعانيه من حزن وألم ، إنه لا تنقطع ألحانه المشجية ، كالعود الذي لا راحة له ولا انقطاع ، إنني كحطب في الصحراء مر به ركب فأشعل فيه النار ، وأعجل الركب السير ، فمضى وخلفه ، وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ويأتي على بقيته، فمتى يمر به ركب جديد ، في هذه الصحراء الموحشة المظلمة؟ .

* * *

الحقائق التاريخية في شعر إقبال[1]

لم يكن إقبال اختصاصياً في مادة التاريخ ، ولم يزعم لنفسه امتلاكاً للموضوع وتعمقاً فيه ، واطلاعاً على أسراره وخفاياه ، وإذا طلب منه في مناسبة من المناسبات أن يتناول كتاباً يدور حول هذا الموضوع ويتصل به من بعيد أو قريب بالنقد والتعريف ، أحجم عن الكتابة ، واعتذر عنها ببساطة وتواضع ، وقال: «إنه لم يختص في هذه المادة ، إنه كان عالم الفلسفة أو عالم القرآن» ، ولكن من البديهي المعروف أن دراسته كانت واسعة منوعة عميقة ، وأنه تأمل خلال بحثه العلمي المتواصل ودراسته الطويلة الواسعة في تاريخ الأمم والشعوب والدول والحكومات ، وفي الأديان والأخلاق ، وفي المجتمعات البشرية والحضارات الإسلامية المختلفة ، بنظر ثاقب ، ونزل في أغوارها واهتدى إلى أسرارها ، ورغم أن التاريخ

---

(١) محاضرة أعدها مؤلف الكتاب لتلقى في ندوة علمية في «شيكاغو» (الولايات المتحدة أمريكا) في أغسطس ١٩٧٥ وكتبها أصالة في أردو، ونقلها إلى العربية المرحوم الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي».

ـ كما قلنا ـ لم يكن محور دراساته ، إلا أنه اعتنى بالموضوع عناية لائقة شأن كل باحث يهمه مصير الإنسان ونهضة الإنسانية وانحطاطها ، والقضايا البشرية المصيرية .

وكان الوجه الثاني أن الفلسفة تثير في الإنسان تطلعاً قوياً إلى الحقيقة المجهولة ، وتحدث فيه ملكة خاصة في ربط الوحدات الضائعة والأجزاء المتناثرة ، والتوصل من المقدمات إلى النتائج ومن الجزئيات إلى الكليات ، والانتقال من الحوادث الظاهرة والتغييرات العابرة والأحداث الطارئة إلى كنه الحوادث وأعماقها لذلك نجد إقبال يتوصل بدراسته العامة للتاريخ إلى نتائج وحقائق لا يصل إليها أولئك الباحثون والعلماء والمؤرخون ، الذين حرموا هذه الحاسة الفلسفية ، والذين هم طلاب مدرسة التاريخ الجامدون وأساتذتها التقليديون ، وقد دله على الوصول إلى تلك الحقائق والنتائج العميقة فهمه العميق للقرآن ، ودراسته المخلصة المتواصلة لهذا الكتاب المعجز ، الذي يحتوي على مواد أساسية ومبادىء واضحة تتوقف عليها سعادة الأجيال البشرية وشقاؤها ، ورقيها وزوالها ، والذي يكشف الستار عن الحوادث التي ستواجهها الإنسانية في المستقبل ، وأسباب شقاء الأمم وهلاكها وازدهارها ، كشفاً تتحير له الألباب ، ويقف عنده العقل عاجزاً مشلولاً لا يجد له التأويل . غير أن هذا الكتاب الذي نزل على «الأمي ابن البادية» ـ كما يقول إقبال ـ منزل من الله العليم الخبير الذي فطر السموات

والأرض ، وذلك ما قاله إقبال عندما قدم إلى الأمير الشهيد نادر خان ملك أفغانستان ، المصحف الشريف :

«إن هذا القرآن سند أهل الحق ، في ضميره حياة وروح ، تندرج في بدايته النهاية ، به فتح عليٌّ باب خيبر» .

ويقول في ديوان «أسرار خودي» :

«إن هذا الكتاب كتاب خالد ، حكمته غارقة في الأزل سارية إلى الأبد ، إنه يفشي أسرار تكوين الحياة ، ويثبت الضعيف الذي تزلزلت أقدامه ، بالقول الثابت» .

إن دراسة شعر إقبال تزودنا بمعلومات وحقائق جديدة إذا تفحصنا في غضون دراساته التاريخية ، ورأينا إلى أي مدى تستطيع هذه الومضات التاريخية في شعره الحي ، أن تسعف رواد مناهل العلم والبحث الذين يريدون الاستفادة من التجارب الحضارية ، وإنه ليس أقل من «اكتشاف» إذا قلنا إن شعر إقبال يتضمن بعض إشارات تاريخية دقيقة تتكون منها مؤلفات تاريخية إذا شرحناها شرحاً وفياً ، فقد جمع في بعض أبياته ومقطوعاته أحياناً ، وفي بيت واحد بعض الحين ، عصارة دراسات عميقة ، ومحصول تأملات طويلة ، ولباب مكتبات كاملة تكونت في التاريخ وفلسفة التاريخ ، وهنالك التقى إيجازه بالإعجاز ، ويمكن إذا شرحنا شعره في نثر وسقنا له شواهد تاريخية ودلائل (وهي كثيرة) أن يأتي رائعاً أخاذاً

كما هو الحال في شعره الحلو ، وبيانه الجميل ، وكلامه الجزل ، ولا يمكن أن يقدر قيمة هذه الإشارات العلمية والتاريخية وصدق نتائجها وعواقبها التي جاءت في شعره تقديراً صحيحاً دقيقاً إلا من كان له اطلاع واسع عميق على التاريخ الإنساني والتاريخ الإسلامي وعلى علو القرآن ، وخبرة دقيقة باليهودية والمسيحية ، والأديان الهندية القديمة ، والفلسفات العجمية وآدابها ، وتاريخ القرون الوسطى التي يسميها المؤرخون الغربيون بحق بالقرون المظلمة «Dark Ages» .

ونقدم هنا نماذج من فراسته التاريخية وحكمته القرآنية التي تجلت في شعره ، من غير تدقيق وتمحيص كبير ، واستيعاب شامل ، لكل ما ورد في هذا الموضوع ، وإنما اخترنا من أبياته ما أعانت عليه الذاكرة ، وانطلق به اللسان، واعتمدنا على شرحه وتصويره وإبرازه في صورته الواضحة المتكاملة على المعلومات العامة لدى القارىء ودراسته للتاريخ الذي يحظى به عادة كل متعلم ، ولكننا لا نستطيع أن ندرك عظمة هذه الحقائق ، وأن نصدق تلك الأفكار والآراء التي قدمها إقبال إلا إذا اطلعنا على خلفياتها التاريخية والمجتمع الذي تدور حوله هذه الأبيات .

ولذلك نستعرض قبل أن نقدم هذه الأبيات الأجواء التي أنشدت فيها ، والظروف التي دفعت إليها .

لقد وزعت الديانات القديمة ـ وخاصة المسيحية ـ الحياة

الإنسانية في قسمين: قسم للدين وقسم للدنيا، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين، معسكر رجال الدين ومعسكر رجال الدنيا، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب، بل حال بينهما خليج كبير أو وقف دونهما حاجز سميك، وظلا متشاكسين متحاربين، وكانا يعتقدان بأن هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر، بل يعلن الحرب عليه، فلا يمكن له ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة وإعراض عن فاطر السموات والأرض، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية والتجرد عن خشية الله، ولا إمكان للتدين من غير الرهبانية وقطع صلة عن الدنيا وما فيها.

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه، وكل فكرة عن الدين لا تسمح بالاستمتاع المباح والنهضة والاستعلاء والحصول على القوة والحكم، لا تصلح للنوع البشري في الغالب، إنه صراع مع الفطرة السليمة، وكبت الغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان، وكانت نتيجة هذا الصراع أن عدداً كبيراً من أصحاب الفطنة والذكاء والكفاءات العلمية آثروا الدنيا على دينهم ورضوا بها ـ كحاجة اجتماعية وواقع حي ـ واطمأنوا إليها، وعكفوا على تحسين هذه الحياة والحصول على ملذاتها، ولم يبق لهم أمل في الدين.

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي على الكنيسة التي كانت تمثل الدين وتتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كفيل هائج مائج تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجمل هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال بين الدين والدنيا ، وذلك العناد بين رجال الدين ورجال الدنيا ، لم يضع حداً على الدين والأخلاق ولم يحرمه من بركات السماء والأرض فحسب ، بل فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت لها في الفكر والعلم والثقافة أو عاشت تحت رايتها ثانياً ، وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء ، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[١] ، وقدموا صورة وحشية كالحة جائرة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا ، وآل الأمر في النهاية إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى ـ في أوسع معناها ـ إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة

(١) انظر «تاريخ أخلاق أوربا» ج/ ٢ لمؤلفه ليكي.

الدينية في هوة عميقة من اللادينية والفوضى الخلقية العامة [١].

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنتها العظيمة ، ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق هو الهدف الذي ينشده المرء الذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ولكنه واسع عميق «النية» [٢].

إنه لا يؤمن بأن هذا مجرد دنيا ، وذاك مجرد دين ، إنه يعتقد أن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله ، وبدافع الإخلاص وامتثال أمره وطاعته ، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله والوصول إلى أعلى مراتب اليقين ودرجات الإيمان ، وهو دين خالص لا تشوبه شائبة ، ولو كان هذا العمل جهاداً أو قتالاً أو حكماً أو إدارة أو تمتعاً بطلبات الأرض، وتحقيقاً لمطالب النفس ، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة ، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة ، والحياة العائلية والزوجية ، وكل عبادة وخدمة دينية ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه ، والخضوع لأوامره ونواهيه ، وغشيتها غاشية من الغفلة ونسيان الآخرة ، ولو كانت

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب «الصراع بين الدين والعلم» لدرابر، أو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» باب «الإنسانية في الاحتضار».

(٢) هذا الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة، والذي افتتح به الإمام البخاري الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات و إنما لكل امرىء ما نوى».

صلوات مكتوبة ، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً ، وقتالاً في سبيل الله ، ولا يثاب عليه العامل والعالم والمجاهد والداعي ، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً ، وتكون بينه وبين الله حجاباً (١) .

وإنها مأثرة عظيمة من مآثر سيدنا محمد ﷺ ومنته العامة الخالدة على الإنسانية ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا ، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين اللذين عاشا في خصام دائم، وعداء سافر ، وحقد مستمر ، يتعانقان في ألف وود ويتعايشان في سلام ووئام، إنه ﷺ رسول الوحدة، وبشير ونذير في الوقت ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب ، والعطف على البشرية وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ .

إنه أعلن بالآية التالية ﴿ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة متضادَّة، فالعبودية والعبادة وحدة شاملة وصورة جامعة ، قد ترى فيها رجال الله في زي الأمراء ومعيشة أصحاب الثراء والجاه ، وترى فيها أمراء

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك، انظر أبواب الإخلاص والنية، والإيمان والاحتساب.

وأغنياء في مستوى العباد والزهاد ، جمعوا بين السيف والمصحف ، عباد ليل ، وأحلاس خيل ، من غير أن يروا في ذلك تناقضاً ، ومن غير أن يجدوا فيه مشقة وحرجاً .

واقرأ بعد هذا التمهيد أبيات شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال الذي أنشدها تحت عنوان «الدين والسياسة» ، وتأمل كيف قيد هذا التاريخ الحافل للإسلام والمسيحية والقرون المتوسطة ، والعصر الحديث ، وتعاليم هاتين الديانتين، ووضع كل هذه الحقائق والمعلومات والمعارف في إطار صغير أو زجاجة رائقة من أبيات ، تترامى لنا بحلاوتها وسهولتها ، وعذوبة جرسها إلى جانب طابعها العلمي الرزين وجلالها الفني البديع ، كأنها كأس من الزلال أو جزء من السحر الحلال :

«قامت الكنيسة على أساس الرهبانية فلم تسعها ـ بالطبع ـ القيادة والسيادة ، والحكم والإدارة ، فقد كان هنا عداء قديم بين الرهبانية والحكم ، هذا خضوع واستسلام ، وذاك استعلاء كامل واستيلاء .

حتى خلصت السياسة نفسها أخيراً من الدين ومرقت منه كما يمرق السهم من الرمية ، وأصبح رجال الكهنوت مكتوفي الأيدي أمام هذا الوضع ، لا يقدرون على شيء ، فلما انفصل الدين عن الدولة ، جاءت الشهوة وشاع الهوى ، وساد قانون الغاب ، هذا الانفصال شؤم على الدولة والدين ، هو لا يدل إلا على ضعف بصر هذه الحضارة وفساد ذوقها .

ولكنه إعجاز رجل من رجال البادية ، الذي كان بشيراً ونذيراً بذات الوقت ، يتجلى في بشارته الإنذار ، وفي إنذاره البشارة .

ولا حفاظ للإنسانية من أخطارها ، ولا سبيل إلى نهضتها إلا بأن يسير الزهاد والعباد ، مع الراكبين على صهوات الخيل ومتون الجياد» [١] .

إن التاريخ الإنساني الطويل ـ الذي أثخن بالجراح وطفح كأسه بالدماء والدموع . وأحاط بجزئه الأكبر حروب طاحنة ، ومعارك ضارية ومغامرات أفراد وجماعات وشعوب ـ يشهد بأن تجمع القوة والحكم في فرد أو جماعة لم يضر النوع البشري مثل ما ضره وجر الشقاء عليه شهوة الحكم ونشوة القوة ، والشعور بالتفوق والعظمة ، فكلما يستولي هذا الشعور على فرد أو جماعة ويحس بأنه ليس على وجه الأرض من هو أقوى منه ، وأنه سيل جارف لا يمنعه شيء وقضاء الله المبرم الذي لا راد له ، والشعوب المجاورة كلها والإنسانية برمتها عالة عليه وتحت رحمته ، ورهن إشارته ، والحقيقة الباقية والشريعة السائدة هي القوة ، أما الإنسانية والعدالة الاجتماعية والرحمة والأخلاق والضمير ، والحسن والقبيح والخبيث والطيب ، فهي كلمات فارغة لا تحمل معنى ، ومنطق انهزامي ، منطق العبيد والضعفاء والمساكين ، والأمم

---

(١) «بال جبريل» .

المستضعفة التي لا تملك حولاً ولا طولاً ، وكلما يصبح شعار (Might is - Right) «القوة هو الحق» مقياس الحق والباطل ، وتمد هذه الفلسفة أجنحتها على شعب الحياة كلها ، وتصبح خشية الله ، والعطف على الإنسانية ، والورع واتقاء المحارم والصبر عنها ، والحياء وشعبه ، آية الجبن وسمة الضعف والتخاذل ، وتتحول الوسائط غايات وتصبح الغايات ممتدة إلى ما لا نهاية لها ، فهنالك ينقلب هذا الفرد أو تنقلب هذه الفئة والجماعة قوة مدمرة عمياء أو بركاناً نارياً هائلاً يتفجر على الإنسانية ، فلا تقف في زحفه الجهنمي وسيله الناري حكومات مستقرة ، وامبراطوريات عظيمة ، ولا تمنعه حضارات الإنسانية ، أو تعاليم خلقية ، ولا نتائج جهود المعلمين والمصلحين من أهل الدين ولا مؤسساتهم التي كانت تغيث الإنسانية منذ قرون طويلة ، وتسعفها في محنها ورزاياها وتخفف آلامها ، وتمسح دموعها.

هذا السيل الناري الجارف يأتي بين عشية وضحاها على سائر الجهود المعمارية والإنشائية والإنمائية ، وكنوز الآباء والأجداد ، وذخائر العلم والأدب ، وعلى كل ما بناه الأوائل، بل يقطع الأمل في بناء الإنسانية ونهضتها وصحوتها من جديد إلى قرون طويلة ، وتحول المدن العامرة إلى أنقاض مدمرة ، ومستعمرات زاهرة إلى أراضٍ قاحلة ، تحول العواصم الكبرى إلى مقابر عامة ، والمساجد والمعابد إلى حانات وخانات ، ونوادي الخمر والقمار ،

ومؤسسات العلم ومراكز الثقافة، إلى مراكز اللهو والترويح والفسق والدعارة ، وينقلب المجتمع كله رأساً على عقب ، ويصبح عاليه سافله، وعزيزه رذيله، وقد صور القرآن ببلاغته المعجزة هذا التغيير الهائل على لسان ملكة سبأ ، فصدق عليه في كتابه الخالد قائلاً :

﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (١).

وكانت فريسة هذه الشهوة ـ شهوة الأنانية والحكم والشعور المفرط بالتفوق ـ أمم قديمة ذكرها القرآن ، أمم لم تعرف شيئاً ولم تحسن شيئاً غير الإبادة والتدمير ، وزحفت كالفيل الهائج المائج ، فأهلكت الحرث والنسل ، وداست شعوبها الشقيقة كما يدوس أحدنا أرض مزرعته ولا يبالي ، وكان من بينها قوم عاد ، وقد وصفها القرآن بهذا الداء ، داء الاستكبار :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢).

وظهرت نتيجة هذا الذهول ـ الذهول عن الله ـ والابتعاد عنه ، وعبادة النفس وتقديسها ، واستعمال وسائل القوة استعمالاً حراً ، لا يبالي بأي قيد ولا يقف عند حد ، ولا يقيم للعاقبة والمصير أي

---

(١) سورة النمل: ٣٤.

(٢) سورة فصلت: ١٥ .

وزن ، ولا يحسب للجناية وحجم عقابها أي حساب. وقد حكى القرآن على لسان سيدنا هود الذي بعث في قوم عاد ، هذه الحالة النفسية ، فقال:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[1] .

فحين يتسلم فرد أو جماعة مقاليد الحكم المطلق ، ويتسنى له قوة تحقق له ما أراد ، هنالك يعبث الفرد أو هذا الطاغية بتلك الشعوب البريئة المغلوبة المنكوبة كمايعبث اللاعب بكرة القدم ، أو كما يعبث الطفل بجانب القرطاس أنه يتصرف فيها كذرات رمل وقصاصات ورق ، ويعتبر أنه على حق في العبث بمصائرها ، والحكم عليها بالموت أو الحياة ، أو التخفيف عنها والتضييق عليها ، أو بسطها بسطاً أو قطعها إرباً إرباً.

ويقص علينا القرآن قصة فرعون الذي ظن نفسه رباً وحاكماً ، وتقلد هذا الحكم الأناني المطلق ، فيقول: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2] .

ثم يصور القرآن في موضع آخر فرداً من أفراد هذه الطبقة يمثل

---

(١) سورة الشعراء: ١٢٨ ـ ١٣٠ .

(٢) سورة القصص: ٣٤.

الأنانية والأغراض، ويملك لساناً سليطاً وبياناً ساحراً ، إنه ليس صورة فرد معين ، بل إنه تصوير سلوك خاص ونمط خاص من العقلية والتفكير والاتجاه:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[1] .

إن التاريخ الإنساني زاخر بهذه النماذج البشرية التي تمثل هذا الطراز وهذه العقلية ، مثلها في مختلف أدوار التاريخ كالروم والفرس ، وقد أنشأ فيهم هذا السكر: سكر القوة والحكم والشعور بالتفوق على غيرهم ، رغبة عنيفة في القتل والتدمير والإبادة ، وإذلال الكرامة الإنسانية تجلت في حروبهم ومعاركهم ، وفي عبادة القوة وقهر النفوس ، واضحة جلية ، يقول الدكتور درابر (Drapper) في كتابه «الصراع بين الدين والعلم» (Conflict Between: Religion And Science):

«لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات ، هبطت في فساد الأخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب إلى أسفل

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .

الدركات ، بطر الرومان معيشتهم وأخلدوا إلى الأرض واستهتروا استهتاراً ، وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة التمتع ، ينتقل فيها الإنسان من نعيم إلى ترف ، ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، وكانت موائدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام في ملابس جميلة خلابة ، وغادات رومية حسان ، وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالاً ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة ، ومصارع يتصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعاً يتشحط في دمه ، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم ، أنه إن كان هنالك شيء يستحق العبادة ، فهو القوة ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التي يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان في ساحة القتال بقوة ساعده ، فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ، ويعين إيرادات الأقطاع ، وإن رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة ، فكان نظام روما المدني يشف عن أبهة الملك ، ولكنه كان طلاء خداعاً كالذي نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها [١].

---

(١) HISTORY OF THE CONFLICT BETWEEN RELIGION AND Science. London 1927 P.P. 13-2

ثم اقرأ غزو التتار الوحوش في القرن السادس الهجري في كتب التاريخ [١] ، إن الذين أحسوا في أول صدام بأنه ليس هنا في البلاد المجاورة قوة تمنع هذا السيل العرم ، وكانت مأساة إنسانية عامة ، لا تستطيع أن تقرأ تفاصيلها إلا بقلوب واجفة ، وعيون باكية ، إنها كانت فتنة عمياء سوداء ، أحاطت بالعالم الإسلامي كله، وقوضت بنيان العالم المتمدن المعاصر وأركانه ، كان الجيل الإنساني كله في هذه الفترة المهيبة المروعة من الزمن في وحشة وغربة ، وهلع وفزع ويأس قاتل ظهرت آثاره لا في كتب التاريخ فحسب بل في كتب الشعر والأدب والأخلاق والتصوف أيضاً [٢] ، هذا الجراد المنتشر من الهمج لم يدمر البلاد العامرة المعمورة والمدن الزاهرة ، والأقاليم الخصبة الغنية المنتجة للرجال والنوابغ فحسب ، وجعلها خراباً يباباً وقاعاً صفصفاً ، بل إنه اكتسح الحضارة الإنسانية برمتها ، وتأخر تقدم العالم العلمي والمدني ومسيرته الحضارية لعدة قرون ، وغشيت سماء العالم الإسلامي الذي حمل لواء الدين والأخلاق والعلم والحكمة في هذه الحقبة من الزمن ، سحب داكنة

---

(١) مثل البداية والنهاية لابن كثير.

(٢) اقرأ بعض تفاصيلها وأخبارها في كتاب المؤلف «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج١، تحت عنوان «التتار محنة العالم الإسلامي».

قاتمة من الانحطاط العلمي والإعياء الفكري والعقلي ، ونضبت فيه منابع النبوغ والذكاء ، وهاجرت أسر علمية دينية عريقة من إيران وتركستان ـ وهما كانتا محاضن العلوم الإسلامية ومعاقلها إذ ذاك ـ تفر بدينها وحرمتها وتراثها إلى الهند التي كانت تقع في أقصى بلاد العالم الإسلامي ، وكانت تحكمها أسر ذات قوة وشكيمة تواجه العاصفة بالإعصار ، وتملك القدرة على مواجهة التتر الوحوش ودحرهم إلى الوراء ، وأصاب العالم الإسلامي نوع من العقم الفكري والجدب العلمي؛ حتى سدت بعض الأوساط العلمية أبواب الاجتهاد ومنافذه ، وابتغت العافية في التقليد والنقل ، وتطبيق الفعل بالفعل [1].

إن قيصر ، والإسكندر ، وجنكيز ، وهولاكو ، وتيمورلنك ، ونادرشاه أفشار ، لم يكونوا إلا مرضى هذا الداء العضال ، داء السكر بالقوة المادية ونشوة الحكم والتفوق بالعظمة ، وكانوا يقنصون الإنسانية ، ويصطادون النوع البشري ، ويدوخون الأسرة الإنسانية مرة بعد مرة ، بأسنتهم ورماحهم ، وبأقدامهم ونعالهم ، اقرأ تفاصيل ملاحمهم ، وصيدهم وقنصهم ، وعبثهم بالرؤوس والجماجم والأشلاء والأنفس والأرواح ، ثم تأمل ـ كيف قدم شاعر

---

(١) وهذا هو سبب انصراف العلماء من الاجتهاد إلى التقليد بعد القرن الثامن عشر الهجري عند إقبال.

الإسلام محمد إقبال عصارة دراسات طويلة وآلاف من الصفحات في ثلاثة أبيات:

«انظر كيف مزق جنكيز وإسكندر رداء الإنسانية، وهتكا ستر الحشمة ولباس الكرامة ففضحا الإنسان مراراً وتكراراً.

إن تاريخ الأمم يشهد منذ الأزل أن سكر القوة ونشوة الحكم خطر في خطر، ومصيبة على مصيبة، إنه سيل جارف يكتسح العقل والفكر والعلم والمعرفة والفن والصناعة كحشائش ونباتات حقيرة، يجعلها هباء منثوراً».

لقد يرى كثير من رجال الفكر في الشرق أن أوربا (بمعسكريها الشرقي والغربي وأمريكا أصابتهما هذه العقدة النفسية، وصرعهما هذا الداء القديم، إنهم اعتبروا نفوسهم أوصياء (Guardians) على الشعوب والأمم والحاكمين على مصائرهم، وهم يزنون كل شيء بميزان القوة أو الربح والخسارة، ولا يرضون بقيادة صالحة أمينة في أي بقعة من بقاع العالم، ويحاولون أن يجتثوها حالاً إذا نشأت، بل يرى كثير من المفكرين والخبراء في الشرق أن القيادة الغربية هي المسؤولة عن ذلك التدهور الخلقي والفوضى الفكرية العامة في البلاد الآسيوية بوجه عام، وفي البلاد الإسلامية بوجه خاص.

هذا المنطق النفعي المجرد عن الحق والنزاهة لا يسمح للقيادة الغربية أن تفكر في أي قضية بحياد تام ورغبة مخلصة في التوصل

إلى كنه الأمر ، وإيجاد حلها العادل ، بل إنها تحالف ـ بالعكس ـ الظالم القوي في وجه المظلوم الضعيف الذي له الحق.

ولذلك خابت المؤسسات العالمية النافعة مثل جمعية الأمم المتحدة ومجلس الأمن في مقاصدها، وصارت لا تمنع صداماً ولا تلم شعثاً ولا تحقق أملاً ، ولا تقدر على إسعاف الإنسانية والأخذ بيدها خالصة مجردة من الأغراض المادية.

وقد زال بفقدان هذا العنصر الهام والعامل الأكبر (الإخلاص والحياد) تأثير معونات الغرب السخية في المشاريع العمرانية والغذائية في الشرق ، ولم تحقق كثيراً من مطالب الغرب ، ولم تكسب احترامه مقابل هذه المساعدات السخية والدعم القوي.

أما إذا اقترنت هذه القوة وامتزجت بغاية نبيلة سامية، وصارت تحت توجيه قائد مصلح راشد، فلا تتخبط كالفيل الهائج الذي أطلق من قيوده ، وتكون مركباً ذلولاً لقائد عارف خبير لا راكباً ، تابعاً لا متبوعاً ، وسيلة لا غاية ، وتتحول إلى نعمة ورحمة بدلاً من عذاب ونقمة ، وحياة لا موت ، وأداة بناء لا معول هدم ، يستنجد بها في إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم ، وتحرير الإنسان من سلاسل العبودية، ورد الحقوق إلى أصحابها ، والمياه إلى مجاريها ، ورد اعتبار الإنسانية وكرامتها ومكانتها اللائقة في هذه الأرض ، هنالك يفتتح عهد سعيد ، ويبنى هذا العالم المنهار المتداعي من جديد.

يقول إقبال: «إذا تخلت السياسة عن الدين صارت سماً ناقعاً، وإذا كانت في خدمته صارت ترياقاً واقياً».

ويعتقد إقبال أن أروع نموذج وأجمل مثال لهذه القوة الممتزجة بالغايات النبيلة والمقاصد الصالحة، هي الفتوح المباركة والمغامرات التي قام بها العرب الأولون الذين اعتنقوا الإسلام، وحملوا رسالته ودعوته في الآفاق، واستعمالهم للقوة التي آتاهم الله استعمالاً صحيحاً لائقاً، والذي عبروا عنه على لسان سفيرهم بإخراج العباد من عبادة الناس إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

إنه خاطب في الأبيات الرائعة الآتية الأمة العربية، وشرح دورهم القيادي الرائع البناء في تاريخ الشعوب والأمم والحضارات والمدنيات، أشاد بهذه العقيدة والإيمان والدعوة الرسالة التي كانت مصدر هذا الانقلاب، ومنبع هذا التحول العظيم في سير الإنسانية واتجاهها، وحركتها ومصيرها، وهي من غرر كلامه وعيون شعره باللغة الفارسية:

«اكتست صحراء العرب بفضل هذا النبي الأمي حلة أنيقة، وأنبتت زهرة يانعة، إن عاطفة الحرية نشأت في ظل هذا النبي بل ترعرعت ونمت في حجره، وهكذا كان يوم هذا العالم المعاصر مديناً لأمسه.

لقد وضع قلباً نابضاً خفاقاً في جسد الإنسان البارد ، وأزاح الستار عن طلعته الجميلة الوضاءة.

هزم كل طاغوت ، وحطم كل صنم ، وأورق به كل غصن يابس وأزهر وأثمر ، إنه روح معركة بدر وحنين ، وإنه مربى الصِّدِّيق والفاروق والحسين.

أذان صلاة الحرب وجرس سورة الصافات غيض من فيضه ، جعل سيف صلاح الدين البتار، ونظرة بايزيد النافذة مفتاح كنوز الدنيا والآخرة.

جرعة من كأسه أروت العقل والقلب والتقى بها روح الرومي بفكر الرازي.

واجتمع بها العلم والحكمة والدين والشرع ، والإدارة والحكم مع قلوب أواهة مخبتة منيبة في الصدور.

إن جمال قصر الحمراء ، والتاج الذي نال خراج الملائكة وإعجاب القديسين هو نفحة من نفحاته ، ولمحة قصيرة من لمحاته ، وومضة من أنواره وبركاته.

ظاهره تلك التجليات والنفحات ، وباطنه در مكنون لم يطلع عليه العارفون ، ولم يصل إلى كنهه السالكون.

فلا ريب أنه يستحق ثناء الجميع وشكرهم وحمدهم ، لأنه أسبغ نعمة الإيمان على هذه الحفنة من التراب».

من المفارقات العجيبة في هذا الكون أن الأشخاص الذين أنشؤوا امبراطوريات عظمى ، ودخلت بهم الأمم المستضعفة الذليلة المهانة في دور النهضة والرقي ، والعظمة والكمال ، والنجاح والازدهار ، كانوا متقشفين صابرين مغامرين ، زاهدين في الدنيا وزهرتها ، أغنياء عن التنعم والعيش الرغيد ، وكانت معيشتهم بسيطة ومرهقة ، ولكنهم نجحوا بفضل مغامراتهم وطموحهم ، وعلو همتهم ، وجهادهم واجتهادهم ، وصبرهم على المكاره في تأسيس تلك الحكومات التي ثبتت كالجبال الراسيات لقرون طويلة» ولكن توفر وسائل الهناء والرخاء ، والبيئة الفاسدة ، ووجود طبقة من المتزلفين وهواة المناصب ، أثر في أخلافهم وأعقابهم بصورة تدريجية فشلت قواهم ، وأخلدوا إلى الأرض ، وتمرغوا في النعيم والترف ، وصاروا أبناء مطاعم ومشارب ، وسهرات ومآرب ، وعز عليهم الحياة من غير كأس ومزمار ، وطنبور وعود ، وارتكز ذكاؤهم ونبوغهم وإبداعهم على نقطة واحدة ، ولم تكن بالطبع ، نقطة الفتوح وحراسة الحدود ، وتوطيد أركان الدولة ، إنما هي تصميمات أزياء ، وأقسام أطباق ، والتنافس في الطرب والمجون والاستمتاع بلذات الدنيا ومباهجها ، ووصلوا في ذلك إلى حدود لا يتطرق إليها خيال ابن من أبناء البلد ، وفرد من أفراد الشعب.

إنه مبدأ عام جرى به التاريخ الإنساني منذ القدم ، وأخذ به من

غير استثناء ويبدو لنا أنها سنة من سنن الكون ، ونتيجة طبيعية منطقية للمال والثراء والمنصب والجاه ، وتوفر أسباب الراحة والرخاء ، وقد كشف القرآن عن وجه هذه الحقيقة بإيجازه المعلوم وبلاغته المعجزة، فقال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (١) .

اقرأ تاريخ شعب من الشعوب في أي دور من أدوار التاريخ وحكومة من الحكومات التي قامت على وجه الأرض قديماً وحديثاً، تَرَى هذا التفاوت واضحاً بين الأول والآخر وبين الأوائل والأواخر، في السير والأخلاق وأنماط الحياة، وفي الأقدار والمقاييس.

ونكتفي هنا بمثالين ونموذجين من هذه الأمة التي سبقت قريناتها في حمل لواء التعاليم الخلقية في هذا العالم ، وهي أمة نبي جعل الفقر شعار فخره ، وربط الأحجار على بطنه ، والتي أقامت به من أول يومها على الزهد والقناعة ، ومراقبة النفس والعطف على الخلق ، فإن أمثلتها ونظائرها تكثر ـ طبعاً ـ في الفرس والروم ، ومصر واليونان ، وفي حكومات وحضارات أخرى.

الواضح المعلوم لدى الجميع أن العرب حين خرجوا من جزيرة العرب لنشر رسالة الإسلام في العالم ، وإجراء شريعة السماء في الأرض كانوا فقراء ، غرباء عن حواشي الحضارة ومستلزماتها ، وكانت حياتهم حياة شكيمة وفتوة ، وصبر وجلاد ، وزهد

---

(١) سورة العلق ٦ ـ ٧.

وشظف [١] ، ولكنهم بفضل القوة الذاتية في الإسلام ، وبحياتهم البسيطة الزاهدة التي فقدتها سائر الشعوب في العالم ، نجحوا في إنشاء دول عظيمة مرهوبة الجانب ، من بينها الدولة العباسية التي حكمت باسم الخلافة خمسمئة سنة حكماً مستقلاً ذاتياً ، ودان لها نصف العالم المتمدن المعاصر على أقل تقدير ، ولقد كان مؤسسو هذه الدولة الأوائل مثل هارون الرشيد والمأمون (مع مطامعهما الملوكية ومعيشتهما الفارهة وترفهما المعلوم) من رجال الفتوة والمغامرة والإقدام ، متعودين على حياة الجندية والفروسية ، ولكن أصاب هذه الدولة أخيراً داء الترف والتنعم ، وأصبح ولاة أمورها الذين حملوا عبء الخلافة الإسلامية على أكتافهم مدة من الزمن ، عالة على نفوسهم وأهوائهم ، ينساقون معها ، ويدورون في فلكها، وصاروا فريسة الحكم الطويل والمدنية الناعمة المترفة، وتكدست عندهم أسباب الراحة والهناء ، وفاضت عاصمتهما بغداد بسيل جارف من الغفلة عن الله ، والتهالك على الدنيا ، عبثت بكثير من رجال العلم والفضل ، وضرب حب الدنيا وحب ما فيها أطنابه على العاصمة ، وما جاورها من البلاد والأقاليم .

وظهرت نتيجة هذا الإغراق في الترف والتمرغ في النعيم

(١) اقرأ للتفصيل رسالة «المد والجزر في تاريخ الإسلام» لكاتب هذه السطور .

والتهالك على حطام الدنيا ، والانصراف عن معالي الأمور في غارة التتر الوحشية في زمن الخليفة العباسي المعتصم بالله ، وتحولت عاصمة العلم والمدنية إلى مجزرة وحشية هائلة ينتكس عند ذكرها قلم المؤرخين [١].

وقد صور مؤرخ أوضاع بغداد قبل غارة التتر فأحسن وأجاد ، يقول المفتي قطب الدين النهروالي المكي (وهو أحد المؤرخين والعلماء في القرن العاشر الهجري) يصف ما كان عليه أهل العاصمة في هذه الفترة من الزمن :

«مرفهون بلين المهاد ، ساكنون على شط بغداد ، في ظل ثخين، وماء معين، وفاكهة وشراب، واجتماع أحباب وأصحاب ، ما كابدوا حرباً ولا دافعوا طعناً ولا ضرباً» [٢].

ونقدم المثل الثاني من الدولة المغولية في الهند التي أسسها ظهير الدين بابر التيموري (١٤٨٢م ـ ١٥٣٠م) على التوبة والإنابة وإرادة الإصلاح والتغيير والتضحية والفداء والعزم الصادق ، فلما رأى بابر أنه لا يملك غير عشرين ألف جندي مقابل مئة ألف مقاتل تحت راية «رانا سانجا» وأن لا أمل هناك ولا مدد سلك طريقاً

---

(١) اقرأ للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول ، باب «التتار محنة العالم الإسلامي».

(٢) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ـ ١٨٠ .

جـديـداً للفتـح ، يحكـي المـؤرخ الهنـدي الشهيـر محمـد قـاسـم البيجابوري في كتابه (تاريخ فرشته):

«إن رانا سانجا» توجه إلى بابر يقود مئتي ألف مقاتل من أهل البلاد ، وساد الذعر في جيش بابر ، ومنعه قواد جيشه وأركان دولته عن الوقوع في الحرب معه ، وتكهن منجم البلاط محمد شريف بأن الهزيمة محتومة ، ولكن بابر صمم على القتال وقال: إذاً ينبغي لنا أن نتهيأ للشهادة في سبيل الله ، وحلف قادة الجيش ورجال البلاط بأنهم سيقاتلون إلى آخر رمق ، وارتفع هتاف الجهاد في كل جانب من جوانب الجيش ، وتاب الملك عن الخمر التي لم يكن يفارقها في وقت من الأوقات ، وتاب عن جميع المنكرات الشرعية، وقاوم «رانا سانجا» بعشرين ألف مقاتل وانتصر عليه ، وكان ذلك في الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣هـ» .

ولكن تدرجت هذه الدولة الفتية التي قامت على مثل هذا العزم والحزم ، والتضحية والفداء ، وميثاق مع الله ، والتي تجملت وافتخرت بوجود عصاميين ونوابغ وعباقرة من بين أبنائها مثل «همايون» و«أكبر» و«أورنك زيب» إلى حمأة الرذيلة والإسفاف ، والشهوة واتباع الهوى ، واتباع الرغبات وإتيان المنكرات ، تجلى أخيراً بصورة واضحة مؤسفة في حياة «محمد شاه» (١٧١٩م ـ ١٧٤٨م) وما جرى في قصره حتى سمي باسم معناه (الماجن) واشتهر به.

وإليك ما جاء عنه في التاريخ مستنداً إلى شهادة علمية: «إن الملك محمد شاه» لم يغير دينه ولكنه غير ديدنه ، فصار الغيم نقيبه ورائده ، إنه أمر بأن يؤذن بالرحيل كلما مرت سحابة على هملايا وأومض برق ، ويغادر الخليفة وركبه القصر إلى الصحراء. . . ولذلك سمي المسكين في الأخير «رنكيلاً» يعني «الماجن» وهجره وزيره (آصف جاه) عندما رأى حالته، فانصرف إلى جبال الدكن وغاباتها».

وجاء في بيان الشيخ الكبير عبد العزيز الدهلوي ما يلقي الضوء على تلك الأوضاع الفاسدة:

«كانت النساء في بيت قمر الدين خان (وزير محمد شاه) يغتسلن الغسل الأخير بماء الورد ، وكان يرسل إلى بيت أحد أمرائه كمية من الورود والأزهار والبان (التنبول) يساوي ثمنها ثلاثمئة روبية كل يوم» [١].

تأمل في غابر هذه الحكومات ومصيرها ، وماضي الأمم وحاضرها ، وما بينهما من تفاوت عظيم وبون شاسع ، ثم انظر كيف صور محمد إقبال هذا التاريخ الطويل العريض ، وأزاح الستار عن نهضة الأمم وتأخرها ، ورقيها وانحطاطها في بيت واحد:

(١) تذكرة ص/ ١٧٢ .

«تعال أنبئك عن مصير الأمم وعاقبتها ، سنان ورماح أولاً ، ولهو وغناء آخراً» .

ولكن هذا المقال لا يتم إلا إذا قلنا : إن هذه الأمم حين تدخل مرحلة اللهو والغناء والترف والمجون ، وتصيبها نوبة عصبية من التمتع بكل لون من ألوان التنعم، والإحاطة بكل نعمة من نعم الدنيا ، وتتخطى سائر الحدود الخلقية ، والاعتبارات الإنسانية ، وتتجاهل كل حقيقة ، هنالك تتدخل الرحمة الإلهية وتتناولها بعملية جراحية، ويختار لهذه الجراحة جنكيز وتيموراً ، أو هولاكو، أو نادراً ، فيقطع هذا الناسور أو هذا السرطان من غير رحمة ولا هوادة ، إنه يقول :

«الملوكية تتحول بين يوم وليلة إلى جنون أو مجون ، وليس التيمور أو جنكيز إلا آلات جراحية تستعملها ـ في حينها ـ القدرة الإلهية» .

ولكن انتهى الآن دور الملوكية القديمة وحكومات شخصية مستبدة إلى حد كبير ، وجاء دور الديمقراطية والجمهورية ، تكدست قوى العالم وثرواتها في أيدي القيادة الغربية (أمريكا وأوربا) وهي تجتاز في هذا الوقت مرحلة الجنون والانتحار، بعد أن وصلت إلى آخر نقطة من النهضة والرقي والازدهار ، وهي مرحلة مرت بها حكومات شخصية قديمة ، وحضارات بائدة في أوانها ، فلا ترى عندها الآن إلا معاداة الحقائق ، وإذلال الشعوب وهضم

الحقوق ، وظلم المستعمرات والجاليات ، وحالة هستيرية عصبية من عبادة النفس ، وتقديس الشهوة ، وعبادة الهوى ، والإغراق في حياة اللهو والعبث والمجون ، والسآمة من الحياة ، والشذوذ الخلقي والجنسي ، والتهالك على كل عاجل وطريف ، ورد فعل عنيف ضد الاجتماع ، والغرام بالذاتية والأنانية ، والذهول التام عن العاقبة والمصير ، وإنكار كل ما يتعدى إطار اللذة والمنفعة ، وكل ذلك يدل على أن هذه القيادة فقدت معنويتها ، وضرورتها وصلاحيتها للبقاء ، وأن هذه الحضارة دخلت دور الاحتضار .

إن تجربة التاريخ تدلنا على أن قيادة فتية شابة كانت تظهر على مسرح العالم في مثل هذه الظروف ، فتقوم بعملية جراحية على هذا السرطان وتنقذ الإنسان من الهلاك ، وتجري في عروقه الميتة دماً فائراً جديداً ، ولكن الحضارة الغربية ما تركت على ظهر الأرض قيادة أو قوة ، ثم ليس هنا أمل في ظهور قيادة جديدة ، أو بروز حضارة شابة قوية في الميدان ، لأن القوى العالمية اليوم متطفلة على مائدة الغرب وتعيش على هامشها وتتبع طريقها ، والحضارات المعاصرة بأسرها مستسلمة خاضعة أمامها ، لا تبغي بها بديلاً ، ولا تجد عنها محيصاً ، لذلك يبدو لنا أن هذه العملية الجراحية لا تتم على يد قوة أجنبية من الخارج ، وهي ليست في حاجة إليها لأنها ـ على ما يقول إقبال ـ مثخنة بجروحها الداخلية الغائرة .

إن الطريق الذي اختارته الحضارة الغربية والقوة الهائلة من

التدمير والإبادة والقتل والفتك، التي زودت بها أناساً لا يخافون الله ولا يستحيون من الناس ، أوشكت أن تقضي على نفسها ويأتي حتفها بيدها.

يقول إقبال :

«إن هذا الفكر الجريء الذي فضح قوى الطبيعة وأفشى أسرار الكون انقلب اليوم برقاً خاطفاً ورعداً قاصفاً ، يهدد عش الغرب ووكره ، وحصنه ومعقله».

* * *

اليقظةُ الإسلاميّة [1]

لقد كان للحرب الكونية الثانية (١٩١٤م ـ ١٩١٨م) وحملات الحلفاء وتضعضع الخلافة العثمانية ، آثار سيئة على البلادِ الإسلامية لا سيما الهند الإسلامية التي هب شعبها المسلم يداً واحدة لمناصرة الخلافة العثمانية وتأييد قضيتها ، وجعلها قضية الموت والحياة وشغله الشاغل ، ولكن لما انهارت الخلافة العثمانية أمام الحملات الشرسة التي كان يشنها الحلفاء ، دب اليأس في قلوب مسلمي الهند ، وكادوا يقطعون الرجاء من انتفاضة الإسلام وقوته ، واستهانوا بمكانتهم ، وداخلهم الوهن ، وفترت الهمم، ونكست الرؤوس ، واستولى اليأس.

هنالك انقلب الشاعر الحكيم داعياً مجاهداً يثير الحماس ، وينفخ في المسلمين روح العزة والإباء ، ويذكر المسلم بدوره

---

(١) أسند المؤلف ترجمة هذه القصيدة البديعة والتمهيد إلى العزيز السيد سلمان الحسيني الندوي ، وقد قام بها خير قيام في بضع ساعات ، وليست القصيدة كلها مترجمة فقد اخترنا منها بعض القطع الرائعة ، وجاءت فيها روح القصيدة.

الرائد ، ومكانته القيادية ، ورسالته الخالدة التي لا ينطفىء سراجها ، ولا تذهب بذهاب الحكومات وانقلاب الدول ، فهي رسالة نابعة من أصالته ، وذاتيته ، واختياره لسيادة هذا الكون.

نظم الدكتور محمد إقبال في هذه الفترة الحالكة غرر القصائد ، وكلها آية في الشعر والحكمة والحماسة ، ولكن قصيدة «طلوع الإسلام» وهي التي عنوناها بـ «اليقظة الإسلامية» تحتل مكانة بيت القصيد ، فلا يوجد لها نظير في جودة السبك ، وقوة التعبير وجمال الانسجام وسيلان القريحة ، وهي سمات لا يمكن نقلها وترجمتها إلى لغة أخرى ، ولكن «إن لم يصبها وابل فطل» يقول محمد إقبال :

«أنت أيها المسلم ، يد القدرة الإلهية ، ولسانها وترجمانها ، جدد فيك الإيمان واليقين ، فقد عراك الظن والتخمين ، إن مقامك ومنزلك وراء هذه القبة الزرقاء والسموات العلى ، وإن ركبك يمشي فوق النجوم النيرة والكواكب المتلألئة.

إن هذا الكون بما فيه ومن فيه ، سائر إلى الزوال والفناء ، ولكنك تملك الآماد والأبعاد ، فإنك أنت رسالة الله الخالدة الأخيرة فأنت خالد مع خلود رسالتك ، ودائم بدوام دورك ومهمتك.

إن دماءك القانية الفياضة عطر حناء لعروس الوردة الحمراء فبدمائك السخية الطاهرة تنتعش الورود والأزهار ، ويجري في عروقها ماء الحياة ، إن نسبك المعنوي متصل بسيدنا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأنت باني الحرم ورافع قواعد البيت العتيق.

إن فطرتك حارسة وأمينة لإمكانات الحياة وأسرار الوجود ، فأنت المحك الأصيل لجوهر الكون وسر الحياة ، وإن ما حملته النبوة من تحفة غالية وهدية ثمينة من عالم الماء والتراب إلى عالم الخلود الذي لا يزول ولا يحول ، إنما هي أنت ، وقد انكشف هذا السر الدقيق بماضي الأمة الحنيفية والملة السمحة البيضاء ، إنك أنت الوصي على هذه الشعوب والأمم التي تقطن بلاد آسيا .

عد مرة ثانية إلى دروس الصدق والعدل والشجاعة ، فالكون في انتظارك ، وقيادة العالم تتطلع إليك وتستشرف نحوك .

إن غاية الخلق والأمر ، وسر الدين والإسلام ، أن تسود الأخوة والمحبة والوئام ، حطم ـ أيها المسلم ـ أصنام اللون واللحم والدم ، وذب في بوتقة الملة الحنيفية السمحة لتصهر صهراً جديداً ، فلا فروق ولا امتيازات ، ولا جنسيات ووطنيات ، ولا عصبيات وقوميات .

إلى متى تتمتع برفقة الطيور المغردة في الحديقة الفيحاء بين الأغصان الرطبة البليلة؟ أليس بجناحيك قوة طيران الصقور المحلقة في الفضاء التي تنشىء أوكارها في الجبال الجرداء والشماء؟! .

إن يقين المسلم وإيمانه في عالم الظن والتخمين ، كمصباح الراهب في الصحراء في ظلمات الليل البهيم ، ما الذي أطاح بعروش كسرى وقيصر وقضى على ظلمهما وجورهما؟ إنه قوة

علي ، وفقر أبي ذر ، وصدق سلمان.

انظر إلى ركب المؤمنين الأحرار ، كيف يشق طريقه في أبهة وجمال ، ويتطلع إليه من فتحات الأبواب أسرى القرون والأجيال ، إنه لا ثبات ولا استقرار للحياة إلا بالإيمان القوي الراسخ ، فقد ثبت أن الطوراني [1] أرسخ قدماً من الألماني.

إن هذه الشعلة من طين ، عندما تتحلى بالإيمان واليقين ، تكتسي بحناحي الروح الأمين ، وتطير بهما في العالمين.

إنه لا تغني السيوف الصارمة ، والعقول الراجحة ، في الرق والعبودية فتيلاً ، ولا تتحطم سلاسل العبودية وأصفاد الذل والصغار إلا بطعم الإيمان وذوق اليقين.

من الذي يستطيع أن يقدر قوة المؤمن وصولته؟! إن نظرة منه والتفاتة تكفي لتغيير المقادير ، وقلب الأوضاع ، وهل الولاية والصلاح والغلبة والسلطان ، وعلم الأسماء وسعة الإدراك ، إلا تفسيراً لكلمة «الإيمان»؟!.

ولكن البصيرة الإبراهيمية لا تتأتى بسهولة ، ولا توهب مجاناً ، فكم من الأهواء والأطماع تختفي في مسارب النفس وتكون لها أعشاشاً وأوكاراً.

---

(١) إشارة إلى الشعب التركي المؤمن الباسل الذي كان يكافح في سبيل الإسلام والشرف.

ألا إن التمييز بين السيد والمسود ، والحاكم والمحكوم دمار للإنسانية وهدر لكرامتها ، فاحذروا أيها الجبابرة الطغاة ، فإن بطش ربكم لشديد، وإن عاقبة هذا الجور لوخيمة .

ومهما كان من شيء خلق من نار أو طين ، فإن حقيقته واحدة ، فلو قطعت قلب الذرة التائهة في الفضاء ، لسالت دماء البدر المنير .

ألا! إن اليقين المحكم الجازم ، والعمل المستمر الحاسم ، ومحبة الرسول الأعظم ﷺ ، فاتح الشعوب والأمم ، هي السيوف المسلولة بأيدي الرجال الأبطال في معركة الحياة .

ماذا ينبغي أن يتحلى به الرجل؟ قلب سليم ، ونبع صاف ، ودم فائر ، ونظرة عفيفة ، ونفس قلقة، ولوعة طموحة .

أنت ـ أيها المسلم ـ سر «كن فيكون» فانكشف على نفسك قبل أن تنكشف على غيرك، وبح بسرك لسرك، كن أمين «الذات» وترجمان الرب. لقد قطع الهوى والطمع بني آدم إرباً إرباً، ومزقهم شر ممزق، فكن أنت ـ أيها المسلم ـ نغمة الأخوة الحانية ، ولسان الحب البليغ .

ما هذه التفرقة البغيضة بين هندي وخراساني ، وإيراني وأفغاني ، فيا ملتزم الساحل واللاجىء إلى الشاطىء ، اقفز بنفسك في خضم البحر فلا تحدك حدود ، ولا تغلك قيود ، لقد يرى على

جناحيك غبار اللون والنسل والوطن ، فرفرف بجناحيك يا طائر الحرم قبل أن تحلق في الفضاء ، انفض عنك هذا الغبار .

اسبر ـ أيها الجاهل ـ أغوار «الذات» وانزل في الأعماق فإنها سر الحياة ، وارفع عن نفسك نير الصباح والمساء ، وحطم قيود الزمن ، وكن خالداً سرمداً أبداً .

إذا صادفتك معركة الحياة فكن لها حديداً صلباً ، وإذا غازلتك ليلة الحب فكن لها حريراً ناعماً ، شق لك الطريق في اليباب القفـار ، وحطـم الجبـال بسيلـك العـرم وتيـارك العنيـف ، وإن اعترضتك حديقة في الطريق فناغمها بجدولك الجميل المنساب الذي له خرير يسكر النفوس ويبهر الألباب .

إن علمك وحبك لا يعرفان الثغور والحدود ، ولا يعتريهما الزوال والفناء ، وليس في قيثارة الكون أغنية أحلى منك .

لا يزال الإنسان إلى يومنا هذا فريسة بائسة في يد الملوكية العاتية ، يا لهول هذا الواقع المرير أن يفترس الإنسان بني جلدته ، وأعضاء أسرته ، إن بريق الحضارة الغربية يخلب الأبصار ويعمش العيون ، ولكنه ـ والله ـ صناعة مزورة بفصوص مزورة ، إن العقل والذكاء الذي يتباهى به عقلاء الغرب وفلاسفته ليس إلا سيفاً قاطعاً في مخالب الشره والهوى والعدوان ، ولا يمكن أن تقوم في العالم مدنية محكمة البنيان بالحيلة والدهاء إذا كان أساسها على حب المال والنهامة بالمادة .

وإن هذا الإنسان الذي خلق من طين ، ليس بطبيعته نوراً ولا ناراً ، وإن حياته بعمله وجده وكفاحه ، فإما إلى طريق الجنة وإما إلى طريق النار .

علم البلابل دروس التغريد ، وانفخ في الطيور روح الخفة والنشاط ، وافتح أكمام الزهور والرياحين ، فأنت نسيم السحر ، ونفحة الروضة الندية .

لقد التهبت جمرة الحب والنخوة في آسيا كرة ثانية ، وأصبحت الأرض حلبة للفرسان من الشعب التركي المجيد ، والأباة الشم ذوي الهمة القعساء والنظر البعيد» .

فدت نفس وما ملكت يميني فوارس صدقت فيهم ظنوني
فوارس لا يملون المنايا إذا دارت رحى الحرب الزبون[1]

* * *

(١) ختمنا المقال الأخير ببيتين لشاعر حماسي هو أبو الغول الطهوي ، أبدى الدكتور محمد إقبال إعجابه بهما أمام المؤلف ، لأنهما يدلان على واقعية العرب وحب الفروسية .

فهرس الموضوعات

* * *